مدرستا أهل القرآن و اقرأ لتعليم القرآن الكريم

ولاية سمائل – وادي بني رواحة

المسابقة العشرون في تفسير القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم

الجزء العشرون

من كتاب

الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر

موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

https://areejquran.net/

دعوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ - ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عزوجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء العشرين

تابع تفسير سورة النمل

نبيُّ الله صالح عليه السلام مع قومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

بعد ذكر الله تعالى قصَّة موسى وداود وسليمان -وهم من بني إسرائيل- يعقبها "بقصَّة صالح" ثم قصَّة "لوط" مع أقوامهما وهم من العرب؛ قصد تذكير قريش والعرب أنَّ جميع الأنبياء عربيّهم وأعجميّهم شأنهم الدّعوة إلى عبادة الله وحده؛ وليعلموا أن عبادتهم الأصنام ضلالة. وكلُّ هذه القصص غرضها التذكير والاعتبار ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أُقسِم أنّنَا لقد أرسلنا بالتَّوحيد والأحكام الشرعيَّة إلى قبيلة ثمود أخاهم في النَّسب والقبيلة -لا في الدّين- صالحًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ﴿فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإذا هم جماعتان إحداهما مؤمنة هي صالح ومن معه وأخرى كافرة هم بقيَّة القوم الباقين على الكُفر، تتنازعان في شأن الدِّين، كلٌّ يرى الحقَّ معه وغيره على باطل ﴿قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال صالح مخاطبا قومه مشفقا عليهم متلطِّفا: لمَ تطلبون وتستعجلون عذاب الله قبل رحمته، قال هذا جو ابا لهم حينما توعَّدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا: ﴿يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هلاَّ تبتم إلى الله واستغفرتموه من الشرك والمعاصي التي تقترفونها ليرحمكم ويرفع عنكم العذاب ﴿قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ المراد أنَّ قوم

صالح أجابوه قائلين: تشاءمنا بك وبمن آمنَ معك و اتَّبعك في دينك فإنَّكم سبب كل بلاء -قيل إنَّهم أصيبوا بالقحط والجوع- ولم نرَ منكم خيرا فقد وقع بيننا الافتراق مذ ابتدعتم هذا الدِّين.اطَّيَّرنا: من التطيُّروهو التشاؤم، وسُمِّيَ التشاؤم تطيُّرا، لأنَّه كان من عادة العرب زجر الطير أي رميه بحجرونحوه، فإن تحول يمينا تفاءلوا، وسمَّوه السَّانح، وإن اتجه يسارا تشاءموا وسموه البارح ﴿قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال لهم صالح: إنَّ سبب ما ينالكم من الشَّرِّهو جزاء لعملكم السيِّئ، وما يصيبكم خيرا أو شرا قضاء من عند الله وقدر، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. وسُمِّيَ القضاء والقدر طائرًا لسرعة نزوله بالإنسان ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ إنَّكم في الحقيقة قوم فتنكم الشيطان بوسوسته وأغواكم بعمل الشرِّ لذا فإنَّ أنفسكم تصدُّكم عن الحقِّ، وتتأثَّرون بالشرِّ من كل من جاءكم به ﴿وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ وكان في مدينة ثمود، وهي الحِجْر، تسعة أشخاصٍ. الرَّهطُ: العدد من النَّاس، اسم جمع من الثلاثة إلى العشرة ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ هؤلاء الأفراد التسعة شأنهم الإفساد في الأرض وأذيَّة العباد بأيِّ وسيلة؛ فقد أوغلوا في الفساد الذي لا أثر للصَّلاح فيه ﴿قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ قال هؤلاء النَّفر بعضهم لبعض بعد أن عقروا النَّاقة: احلفوا بالله ولْيقسم كلُّ واحد منكم للآخر لنقتلنَّ صالحا وعياله في بياتهم ليلاً في غفلة. والتبييت والبيات: مباغتة العدو ليلا وعكسه التصبيح ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ثمَّ ليحلف كلُّ واحد منكم لأولياء الدَّم أو القصاص أنَّه ما شهد هلاكهم ولا يدري من قتلهم ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ ونحلف لهم أنَّنا صادقون في قولنا ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ ودبَّروا مؤامرة وأرادوا أن يكيدوا بصالح وأهله ﴿وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فجزيناهم على مكرهم وأهلكناهم وعجَّلنا لهم العقاب من دون أن يشعروا به، والله منزه عن المكر حقيقة، و إنما سمى عقابه مكرا بطريق المشاكلة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فانظر أيُّها الرَّسول ويا كلَّ متأمِّل كيف كانت نهاية مكرهم وكيدهم فقد أهلكنا هؤلاء الرهط الذين تقاسموا وقومهم الكفار الذين معهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا﴾ فانظر إلى حال بيوتهم كيف صارت خربةً خاليةً نتاج ظلمهم لأنفسهم وكفرهم وتكذيبهم الرُّسل، فقد أهلكوا جميعا ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنَّ في هذا العقاب والعذاب الذي حلَّ بثمود الكفَّار لعبرة وموعظة لأناس هم أهل معرفة وعلم بسنن الله في خلقه وبأنَّ النتائج

مرتبطة بالأسباب، ويعلمون قدرة الله فيتَّعظون ﴿وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ و أنجينا صالحا ومن معه من العذاب إذ كانوا يتقون الله ويبتعدون عن الكفر والمعاصي، وفي ذلك طمأنة لقلوب المؤمنين بأنَّ الله سينجيهم كما نجَّى صالحا وقومه الذين آمنوا معه.

نبيُّ الله لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (٧) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)﴾.

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ﴾ واذكر أيها الرَّسول محمد لقومك قصَّة رسولنا لوط حين أرسلناه إلى قومه أهل سدوم فقال لهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أتفعلون الفعلة الشَّنيعة وتقترفون المنكر و أنتم تعلمون يقينا أنَّها فاحشة، وتدركون وتبصرون مدى فُحشها وقُبحها، فالقبيح من العالِم بقبحه أشدُّ من الجاهل به، أو المراد بـ"تُبصرون" الإبصار الحقيقي، أي ترون بأعينكم قبحها ويبصر بعضكم بعضًا. ثم صرَّح بنوع الفاحشة ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾ قال مكرِّرا توبيخه لهم كيف تشتهون الرِّجال وتُقبلون عليهم دون النِّساء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إن هذا الفعل انتكاس للفطرة وشذوذ، وليس إلاَّ دليلا على سفهكم وجهلكم بعاقبة هذا الأمر الفظيع؛ إذ تفضلون الرِّجال على المباح لكم من النِّساء ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يكن ردُّ أولئك القوم المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطا ومن معه من أهله من بلدتنا لنرتاح منهم ومن وعظهم وإرشادهم ﴿إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وسبب طردنا لهم أنهم قوم يتحرجون عن فعلنا ويتنزَّهون عن القاذورات، ويعدّون فعلنا شنيعًا قبيحًا، وهذا دليل على انتكاس فطرهم؛ وإلا فإن الطهارة منقبة وليست مذمة توجب الإخراج ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ فأنجينا لوطا ومن معه من أهله الذين آمنوا به باستثناء امرأته ﴿قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ﴾ جعلناها من المهلكين الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ وكان عذابهم أن أنزلنا عليهم من السَّماء حجارة كالمطر فأهلكتهم و أبادتهم

﴿فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس المطر مطر الذين بلغهم الإنذار والتحذير بالعذاب و أقيمت عليهم الحُجَّة، فخالفوا رسولهم وكذَّبوه.

دلائل وحدانيَّة الله وقدرته وعظمته

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٦٤)قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (٦٦)﴾.

بعد ما ذكر الله تعالى قصص بعض رسله و أنبيائه مبيّنا فيها سبب إهلاكهم جراء شركهم ووثنيَّتهم، أمر رسوله ﷺ بحمده وشكره والسَّلام على أنبيائه لأدائهم واجب التبليغ على أكمل وجه، و أتبع ذلك الإشارة إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيَّته فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى﴾ يا محمَّد احمد الله واشكره على نعمه و أفضاله عليك وعلى عباده، واحمده على هلاك الكُفَّار من الأمم الماضية، وسلِّم على عباد الله الذين اختارهم لتبليغ الرِّسالة؛ وهم الأنبياء والرُّسل عليهم أفضل الصلوات والسلام. وفي هذا تعليم لنا وإشارة إلى حمد الله تعالى وشكره على نعمه والتَّسليم على المصطفين الأخيار من عباده ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل الله الواحد الأحد المتَّصف بالقوَّة والقدرة التامَّة خير أو الأصنام التي تعبدونها من دونه؟ وهذا تهكُّم بحالهم إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله وهو استفهام إنكاريٌّ للمشركين. ثم إنَّه تعالى ينتقل من التَّوبيخ إلى بيان الأدلَّة الدَّالة على وحدانيَّته و أنَّه الخالق لأصول النِّعم وفروعها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ هل آلهتكم خير أو الله الذي خلق السَّماوات والأرض وما فيهما من الكائنات والخلائق، و أبدع فخلق السماوات في صفائها

وارتفاعها وما فيها من كواكب منيرة، وخلق الأرض وما فيها من سهول وأنهار وجبال وبحار ووديان وحيوانات مختلفة الأصناف والأشكال؟ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾ كما أنَّه تعالى أنزل بقدرته ماءً من السَّحاب فجعله رزقا لعباده؛ أنبت به بساتين وحدائق ذات خضرة وجمال ونضارة وشكل حسنٍ بهيٍّ ﴿ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها﴾ لولا قدرته تعالى ما كنتم لتستطيعوا أيُّها البشر إنباتَ شيءٍ من شجرها أو زرعها فضلا عن ثمارها مع اختلافها في الطعم واللَّون والرّائحة ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ فهل يصِحُّ بعد هذا اتخاذ إله يُعبد مع الله الخالق الواحد الصَّمد المتفرّد بالخلق والتَّكوين؟ وهل يصحُّ أن تُسَوُّوه مع غيره؟ وهو استفهام إنكاري ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بل إنَّ هؤلاء القوم المشركين منحرفون عن الحقِّ إلى الباطل فيجعلون لله عدْلاً ونظيرًا ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً﴾ هل آلهتكم خير أو الله الذي خلق لكم الأرض وجعلها قرارًا؛ أي موضع استقرار و إقامة للإنسان وغيره، لا تميد ولا تتحرك بمن عليها؟ ﴿وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً﴾ وجعل في شعابها وأوديتها أنهارا عذبةً تشقُّ الأرض في أخاديد لسقاية الإنسان والحيوان والنبات.الخِلال: جمع خلل وهو الفرجة بين الشيئين ﴿وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ﴾ وجعل للأرض جبالاً شامخةً تُصْلح شأنها وتثبّتُها فلا تميد بأهلها ولا تتحرّكُ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً﴾ وجعل بين المياه العذبة والمياه المالحة فاصلاً يمنعها من الاختلاط والامتزاج فلا يُفسد هذا ذاك، وقد اكتُشِف هذا الحاجز حديثا، فسبحان من علَّم محمدا الأمي ذلك! ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أيصحُّ اتخاذ إله مع الله؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إنَّ أكثر المشركين لا يعلمون الحقَّ؛ إذ رسخ فيهم الجهل فهم لا ينكرون الشرك مع ظهور بطلانه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ دليل ثالثٌ وبرهانٌ ساطعٌ على وحدانيَّته تعالى يتعلق باحتياج الخلق إلى خالقهم مفاده: من يسمع المكروب المهموم الذي مسَّه الضُّرُّ ويستجيب دعاءه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويرفع عنه الضرَّ الذي أصابه من مرض أو خوف أو فقر أو غيره ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾ ويجعلكم ورثة لغيركم في الأرض والدِّيار تقومون مقام من قبلكم من الأمم، فيخلف جيلٌ جيلاً وأمةٌ أمةً ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ هل من إله غير الله يفعل ذلك لتعبدوه معه؟ ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ ما أقلَّ تذكُّركم واعتباركم بما تشاهدون من عظمة خالقكم وقدرته ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هل آلهتكم خير أو الله الذي يرشدكم ويدلكم إذا تهتم وضللتم الطريق في ظلمات البراري والبحار والقِفار بما خلق من دلائل أرضية وسماويَّة ﴿وَمَنْ

يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ومن ذا الذي يسوق الرِّياح مبشِّرات أمام نزول الغيث رحمة للعباد، فهو الذي يحيي به الأرض بعد موتها، وما أجمل هذا التعبير البلاغي المجازي الذي شبه المطر بقائد له جنود يسبقونه ليمهدوا طريق سيره ﴿، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾هل من إله غير الله يفعل ذلك لتسوُّوه به؟ ﴿تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزَّه الله وتعظَّم وتمجَّد عن مشاركة العاجز المخلوق الذي أشركه به المشركون ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هل آلهتكم خير أو الله الذي بدأ الإنسان وأوجده من غير مثال سابق، ثم إنَّه تعالى يميته وبعد ذلك يعيده بعد فنائه؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ و إنَّه الله الرَّزَّاق الذي يرزقكم من السَّماء بما ينزل من مطر، ومن الأرض بما يخرج منها من نبات وزرع وثمر، وما يتولد من الأرض مما يستفاد من الحيوان كاللَّبن واللَّحم والعسل وغيره ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ هل من إله غير الله يفعل ذلك؟ ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ قل لهم أيها الرسول: قدِّموا دليلكم وحجتكم على الذي تزعمونه من صحَّة دعواكم في أنَّ مع الله إلها آخر إن كنتم صادقين في ذلك. وهذا من باب التعجيز إذ لا حجة لهم ولا دليل ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قل يا أيُّها الرَّسول لجميع الخلق إنَّه لا يعلم أحدٌ من مخلوقات الله تعالى الغيب وما خفي إلا الله سبحانه فهو المختصُّ بذلك العالم به ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يعرف الخلق ولا يدرون متى يبعثون بعد موتهم، أي لا يعلم أحد وقت قيام السَّاعة ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ إنَّ العلم بالآخرة قد تتابع الإعلام به عند كلِّ الرُّسل، فما من رسول إلا دعا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وجاء بالدليل عليه. ادَّارَكَ: تتابع وتلاحق واستحكم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها﴾ و أكَّد جهلهم بها فقال: إنَّهم في حيرة شديدة وشكٍّ في حدوثها ووقوعها ﴿بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾ بل إنهم أسوأ من ذلك فهم في عَمًى عنها، لا بصيرة لهم يدركون بها حقيقة وقوعها؛ فآيات البعث والقيامة موجودة لكنَّ النَّاس عموا عنها فلم يروها.

إنكار المشركين البعث واستبعادهم له

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٧١)قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا

يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٧٤) وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٧٥)﴾.

ينتقل الله تعالى إلى ذكر بعض شبهات المشركين التي جعلتهم ينكرون الآخرة ويستبعدون البعث والنُّشور ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وقال الذين كفروا بالله ورسله وأنكروا وحدانيَّته ولم يؤمنوا بالبعث: أنخرج من قبورنا نحن وآباؤنا أحياء من جديد بعد أن بليت أجسادنا وصارت ترابًا؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد سمعنا عن هذا كثيرا ووُعد به آباؤنا من قبلنا، لكنَّا لم نروقوعا له إذ لم يقم أحدٌ يومًا ما بعد موته ﴿إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إنَّ هذا الوعد بإعادة الأبدان حيَّة مجرَّد خرافة ووهم قاله الأوَّلون وسطَّروه فتناقله النأس عن بعضهم، لا حقيقة له في الواقع وليس له دليل. فقد أنكروا البعث ناسين أنَّ الذي خلقهم من العدم أولاً قادرٌ على إعادتهم أحياء من جديد ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قل لهم يا محمّدُ: سيروا في أرجاء الأرض ونواحيها وتأمَّلوا مآل المكذبين أمثالكم الذين سبقوا، لقد فتنوا بالدنيا وزخرفها وكذَّبوا الرُّسل وأنكروا البعث فأهلكهم الله بذنوبهم، ولا تزال آثارهم شاهدة عليهم، وتلك سنَّة الله في كُلِّ مكذِّبٍ لرسله ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ويسلِّي سبحانه رسوله الكريم مخفِّفًا عنه؛ لأنَّ الرَّحمة والشَّفقة على قومه كانت غالبةً عليه: يا محمد لايأخذك الحزن عليهم ولا تغتمَّ لإعراضهم وتكذيبهم رسالَتَك ولا تكن ضيِّقَ الصَّدر حزينًا مكروبًا من كيدهم وتآمرهم عليك فإنَّ الله ناصرك ومظهر دينك ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ ويخاطب الكفار النبيَّ والمؤمنين معه منكرين عذاب الله كذلك: أخبرونا متى يحلُّ بنا العذاب الذي تتوعدوننا به إن كان ذلك صحيحًا وكنتم صادقين في دعواكم، يقولون ذلك استهزاءً وسخريةً ﴿قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قل لهم يا محمَّدُ: لعلَّ الذي تستعجلونه من العذاب قد لحقكم ودنا واقترب وقوع بعض منه، قيل هو ما لحقهم من القتل والأسر يوم بدر.ردف: اقترب ودنا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ثم يذكر الله تعالى سبب تأخير العذاب عنهم: إنَّ الله تعالى لذو فضل واسع وإنعام كبير على عباده مؤمنهم وكافرهم رغم ظلمهم لأنفسهم، ومن فضله ترك تعجيل العقوبة على معاصيهم وكفرهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ ولكنَّ الكثير من عباده غير شاكرين لفضله وإحسانه

بهم ولا يعرفون حقَّ النِّعمة، ومن هذا الأكثر هؤلاء الكفرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ﴾ وإنَّ الله ﷻ ليعلم ما تخفي صدورهم وما يظهرون، فهو يعلم السَّرائر والظَّواهر، والمراد بذلك أنه تعالى عليم بما يكيد المشركون لرسوله وسيجازيهم على ذلك، وإنَّه يمهلهم مع علمه بهم لحكمةٍ يعلمها ﴿وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ ليس من شيء خفي ولا غائب موجود في الأرض أو السَّماء إلا وقد أحاط الله به علمًا وأثبته في كتابٍ بيّنٍ مفصَّلٍ، وهو اللَّوح المحفوظ الذي أثبت فيه سبحانه كل ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، وهذا المعنى أولى في تفسير الآية، وقيل: الغائبة يوم القيامة وأحواله، وقيل: الحوادث والنوازل، وقيل: أعمال العباد، وقيل:أنواع عذاب السَّماء والأرض. والتاء في "غائبة" للمبالغة

القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين

﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠)وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾.

﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّ هذا الكتاب العزيز المنزَّل على خير البشر محمد ﷺ يخبر عن بني إسرائيل حقيقة كثير من الأمور التي اختلفوا فيها ﴿وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنَّ هذا القرآن لهاد المؤمنين إلى سبيل الرَّشاد وإلى الصِّراط المستقيم، كما أنَّه رحمةٌ لهم فيما شرَّع لهم من أحكام تلائم حاجات البشر وتحقِّق مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، وخصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ يامحمد: إنَّ ربَّك يفصل ويقضي بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم بقضائه وحكمه العادل؛ فيجازي المحقَّ والمبطل كلاًّ بما يستحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب الذي لا يرد حكمه ولا أمره، العليم بأفعال عباده و أقوالهم وكل ما يصدر منهم فلا يلتبس عليه حقٌّ بباطل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فاعتمد يا محمد على الله في جميع شؤونك وفوّض أمرك إليه ولا تهتمَّ لأعداء الله فإنَّه ناصرك ومعينك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ واعلم يا محمد أنَّك على الدِّين الحقِّ الواضح، وهو تعليل للتوكل أي، توكل عليه

لأنَّك محقٌّ والله لا يخذل المحقَّ ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ اقتصريا محمَّد على التوكُّل؛ لأنَّهم كالموتى لا حسَّ لهم ولا عقل ولا تستطيع أن تُسمعهم شيئا ينفعهم فهم لا يتأثَّرون ولا يفهمون مما تتلو عليهم شيئا ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ولا تستطيع أن تُسمعهم نداءك ودعوتك لهم إلى الإيمان؛ لأنهم خاصَّة حين تولّيهم وإعراضهم عنك كالصُّمِّ الذين لا أمل في سماعهم، فالأصمُّ كلما تباعد وأدبر عن الدَّاعي كان أبعد عن سماع صوته؛ فقلوبهم ميتة وفي آذانهم وقرٌ. والمراد تأكيده تعالى على النبيّ ﷺ التوكُّلَ عليه والإعراض عما سواه لأنَّه على الحقِّ المبين ولأنَّه لا مطمع في استجابة المشركين أو مساندتهم له في أمر الدين ﴿وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ وما أنت يا محمَّد بقادر على أن تردَّهم من الضَّلال والكفر الذي هم فيه إلى الهدى، فهم كالعميان، في أبصارهم غشاوة تمنعهم عن رؤية الحقِّ ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إنَّه لا يتأثَّر بكلامك وينتفع به إلا أهل الإيمان الذين قضى الله أنهم يؤمنون ويزول صممهم وعماهم وموتهم، ولا يستجيب لدعوتك إلا من كان مبصر القلب، فهؤلاء هم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم إلى الرحمن وأخلصوا له.

من علامات يوم القيامة وأماراتها

﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾.

ينتقل الله ﷻ إلى ذكر أهوال يوم القيامة وما ادُّخر فيها من الوعيد للمشركين والعصاة ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وإذا دَنا و اقترب وقوع ما وُعِدوا من البعث والعذاب الذي كانوا يكذِّبون به متهكمين مستبطئين وقوعه، وقَرُب قيام السَّاعة وحان وقت عذاب الكفَّار ﴿أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ أخرج الله ﷻ آية عظيمة وعلامة من علامات السَّاعة الكبرى وهي "دابَّة من الأرض" تحدِّثهم وتقول لهم إنَّ أكثر الناس كانوا ينكرون البعث، وبالقرآن ومحمَّد ﷺ كانوا يَشكُّون ويُكذِّبون، والله أعلم بهيئة هذه الدابة وكيفيتها، فنؤمن بها ونقف عن الخوض في تفاصيلها ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا﴾ ويوم القيامة نجمع من كلِّ أمَّةٍ من الأمم جماعة

كانت جاحدة تكذِّب بآيات الله ورسله، وهذا حشرٌ خاصٌّ بعد حشر جميع النَّاس ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُجمع أوّلُهم ليلحق بهم آخرهم ويساقون بعنف وغلظةٍ إلى الحساب والعذاب ﴿حَتَّى إِذا جاؤُوا قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً﴾ حتى إذا ما وصلوا مكان الحشر والحساب ووقفوا بين يدي الرحمن قال لهم موبّخا: أكذبتم بآياتي التي أنزلتها على رسلي والتي أقمتها دلالةً على توحيدي واستحقاقي العبادة دون غيري ولم تحيطوا علمًا بها بأن تفكروا في كنهها وتتدبَّروا فيها؟ ﴿أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المعنى: بل ماذا كنتم تعملون؟ وأيَّ شيء كنتم تفعلون في الدُّنيا غير الكفر والتَّكذيب بآيات الله؟ وهذا تقريع وتوبيخ آخر ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا﴾ حينها يحل العذاب بأولئك المكذِّبين وتقع عليهم الحُجَّة بسبب ظلمهم لأنفسهم أي شركهم وتكذيبهم وكفرهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾ فهم عندها لا يتكلَّمون ولا يجدون ما يمكن أن يتلفظوا به؛ لأنَّه لم يبقَ لهم عذرٌ حقيقٌ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ ألم ير هؤلاء المكذِّبون بآياتنا قدرة الله تعالى فيعتبروا؟ فهو الذي جعل الليل مظلما ليكون مقرًّا للسُّكنى والرَّاحة والنَّوم بعد تعب النَّهار، وجعل النَّهار منيرًا مشرقًا لطلب الرِّزق والمعاش والتَّجارب وغير ذلك من شؤون الحياة. ذكَّرهم الله بأبرز آية وأكثرها تكرارا على حواسهم والأجدر بأن تكون سببا في ارعوائهم عن شركهم ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنَّ في إبدال الظُّلمة بالنُّور والنُّور إلى الظُّلمة، وفي ذلك الخلق والإيجاد بعد العدم لدلالات ظاهرة قاطعة على قدرة الله تعالى على البعث لقوم يصدِّقون بالله ورسله.

نفخة الصُّور وما يعقبها

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾.

بعد ذكره تعالى خروج الدَّابَّة وهي إحدى علامات يوم القيامة، يذكر علامتين أخريين وهما النَّفخ في الصُّور وتسيير الجبال، ثم ذكر أحوال المكلفين يوم القيامة وقسَّمهم قسمين ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ واذكر حين ينفخ في البوق نفخة البعث والفزع، عندها لا تجد

أحدًا من أهل السماوات والأرض إلا خائفا خوفا شديدا وفزِعًا فزَعا عظيما من عو اقب الحساب ومشاهدة آلات العذاب، فالفزع حاصل بعد النفخة وليس هو فزعا من النَّفخة، لأنَّ النَّاس حين النَّفخة أموات.فالصُّور: البوق الذي ينفخ فيه وقيل هو قرن ينفخ فيه ﴿إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ﴾ إلا الذين ثبَّت الله قلوبهم وشاء سبحانه ألا يفزعوا، قيل هم الملائكة والأنبياء والشُّهداء وكل من مات على الوفاء والتوبة ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ وكلُّ الخلائق تقف بين يدي الله صاغرةً ذليلةً للسُّؤال والحساب، لا يتخلَّف مخلوق عن أمر ربِّه.داخرون: صاغرون أذلاء ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً﴾ قيل: هذه الآية مرتبطة بما قبلها، وهو ذكر أهوال القيامة، وعلى هذا فيكون المعنى:وتنظر يومها إلى الجبال فتظنُّها ثابتة في مكانها و اقفة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾ ولكنَّها في الو اقع تسير سيرا سريعا كما يسير الغمام بتأثير الرِّياح؛ فالجسم السريع إذا تحرك فإن حركته تكاد لا تبين، ومن المفسرين من جعل الواو للاستئناف، فالآية على هذا لا تتكلم عن حال الجبال يوم القيامة و إنما حالها العام حتى في الدنيا فهي في حركة مستمرة، وإن بدت لنا ساكنة، وهذا مما ثبت علميا ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إنَّ ذلك لفعل الله العليِّ القدير المبدع الذي أحكم صنع كلِّ شيء و أتقنه ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ﴾ والله سبحانه عليم بما يصدر من عباده وما يفعلونه من خير أو شرٍّ، فيجازي كلا بما يستحق.

ثمَّ إنَّ النَّاس في ذلك اليوم المهيب فريقان: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ فريق جاء يوم القيامة مؤمنا بالله ورسوله عاملا الصَّالحات؛ فهذا الفريق له الثَّواب الجزيل عند ربِّه وله خير مما جاء به من الحسنات ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ كما أنَّهم من خوف ذلك اليوم آمنون مطمئنُّون لا يصيبهم منه شيء، وهو الخوف من عذاب القيامة، كما قال تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أما الفريق الثَّاني فهم الذين جاءوا ربَّهم مشركين به أو مرتكبين للمعاصي والآثام، فيُلقون في النَّار ويطرحون فيها منكوسين على وجوههم أذلاَّء ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم توبيخا: ليس هذا إلا جزاء عملكم السيِّء في الدُّنيا من شرك ومعصية.

﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

يخاطب الله ﷻ نبيَّه الكريم قائلا: ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها﴾ قل لهم أيُّها الرَّسول إنَّ ربِّي ربَّ هذه البلدة -وهي مكة- التي حرَّمها على النَّاس؛ بأن جعلها حرمًا آمنًا لا تسفك فيها دماء ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها، أمرني أن أخصَّه بالعبادة دون غيره، وخصَّ مكَّة تعظيمًا لها، وتلويحًا لهم بزيادة قبحهم بارتكاب أعظم المعاصي وهي الإشراك بالله في أفضل البلاد ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وإنَّ ربِّي لمالك كل شيء ومليكه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربِّي أن أكون من الموحِّدين المخلصين له دون غيره، المنقادين لأمره المستسلمين لحكمه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ كما أمرني ربِّي كذلك بتلاوة كتابه وتدبُّر آياته والعمل بمقتضاه، ففي القرآن البراهين السَّاطعة والدَّلالات القاطعة ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أمَّا من خرج من الضلالة إلى الهدى بالقرآن فاستنار قلبه للإيمان والعمل الصالح فلا يمنُّ عليَّ باهتدائه؛ لأنَّ ثمرة الهداية راجعة إلى نفسه ولمصلحته ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ومن خرج عن الهداية وأخطأ طريق الحقِّ والرَّشاد، وكذَّب برسالتي وبما جاءني من عند الله فوِزْرذلك يعود إلى نفسه؛ فأنا لست إلا منذرًا مخوِّفا إيَّاكم من عذاب النَّار، وما على الرَّسول إلا البلاغ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قل يا محمَّد: الحمد لله على ما تفضَّلت به عليَّ من النِّعم، وعلى ما وفَّقتني إليه من تبليغ الرِّسالة والعمل بما أنزلت ﴿سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها﴾ سيريكم الله سبحانه آياته الدَّالة على عظمته وقدرته فتعرفونها في الدنيا، وفي الآخرة حيث لا تنفعكم المعرفة ﴿وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربُّك وربُّ الخلائق أجمعين غافلا عن أعمال العباد بل هو على كلِّ شيء شهيد. وهذا تبشير للنبي ﷺ بأنَّ الله ناصره ومخزي أعدائه الكافرين.

تمّ بحمدِ الله تعالى تفسير سورةِ النّمل وتليها سُورة القَصص.

سورة القصص

سورةُ القصصِ مكّيّةٌ كلّها؛ وقيل: بها آياتٌ مدنيّةٌ، عرفت لها هذهِ التّسميّةُ دون غيرِها، وهي التّاسعةُ والأربعون في تعدادِ النّزولِ، نزلت بعد سورةِ النّملِ وقبل سورة الإسراء، وعددُ آياتِها ثمانٌ وثمانُون آية بلا خلافٍ يُذكر، وتسميتُها ناشئةٌ عن قوله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي مجموع الوقائعِ التي حكاها موسى عليه السلام لأبي المرأتينِ اللّتينِ سقا لهما على الأظهر؛ وليست قصصًا للأنبياء.

افتتحتِ السّورةُ بقصّةِ موسى عليه السلام وتتبّعت مختلِف محطّاتِ حياتِه الشّخصيّةِ والدّعويّةِ؛ مفصّلةً في جوانب لم تُفصّلها سورٌ أخرى ومجملةً ما قد فُصّل في غيرِها؛ كما بيّنت ما كان من تجبّر فرعون وقومِه ونهايتِهم الفظيعة، ومن بابِ الاعتبارِ بهم راحت تُثبّتُ المؤمنينَ وتُسلّيهم بأنَّ الظّلم منتهٍ؛ وتُنكرُ على من بَقُوا في إعراضِهم مع وصولِ القرآنِ الحجّةِ لهم، وقد تخلّل ذلك تذكيرٌ بقدرِ الله وفضلِه الذي استحقَّ به أن يُعبد وحدهُ، وأخيرًا عطفَ الحديثَ إلى قصّةِ قارُون محذّرًا من فتنةِ الدّنيا والمالِ، واختتمتِ السّورةُ بوصايا عامّة للرّسُول ﷺ للرّفعِ من همّتِه في خدمةِ دعوتِه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطوط العريضة لقصّة موسى عليه السلام مع فرعون والإسرائيليّين

﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾.

﴿طسم﴾ القرآنُ مركب من مثلِ هذهِ الحُروف، فهل لكم أن تأتُوا بمثلِه! ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الإشارةُ إلى عمومِ الآياتِ الآتيةِ في السّورةِ؛ بأنّها آياتُ الكتابِ المنزلِ من الله؛ وليس كلام مخلوقٍ مفترى كما يزعمون، وهو البيّنُ لذاتِه والمبيّنُ للهدايةِ والأحكام والقصص، وإشارةُ البعدِ"تلك" للقريبِ تعظيمٌ، وتسميتُه بالكتابِ قبل أن يُجمع إعجازٌ بأنّه سيصيرُ كتابًا، والخطابُ لعُمومِ السّامعينَ ثمَّ

يخصُّ به الرّسُول ﷺ ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ نقصُّ عليكَ أيّها الرّسُول ﷺ من أخبارِ نبيّنا موسى عليه السلام مع فرعون بالخبرِ الصّادقِ النّافع وكأنّك حاضرٌ شاهدٌ، وفي قوله "بالحقّ" تعريضٌ لما اندسَّ في قصصِ الأنبياءِ من الأوهام والأباطيل، ومن بديعِ ما يُلاحظُ أنّ سور الطّواسين أو الطواسيم الشّعراء والنّمل والقصص اتّحدت في إيرادِ قصّةِ موسى عليه السلام في فواتِحها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نقصُّ ذلك عليكَ لأجلِ المؤمنينَ الذينَ معكَ؛ فيتسلّون ببني إسرائيل وكيفَ أنّ الله مكّنهم في الأرضِ وأعزَّرسُولهم وخذل أعداءهم، وخصّ المؤمنين بالذّكرِ لأنّهم هم المنتفعُون.

وبعد هذه المقدّمة يشرعُ في القصّة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ إنّ فرعون تكبّر على الخلقِ في الأرضِ، و افتتاحُ القصّةِ بالتّأكيدِ وعلى هذا المقطعِ براعةٌ في جعلِ القارئ يلمسُ فحوى القصّةِ مباشرةً، والعلوّ مجازٌ عن الرّتبةِ القوميّةِ والنّفوذ السّياسيّ، والمراد بالأرضِ ما في حدودِ مملكتِه، ثمَّ يُبيّنُ ما مكّنه من ذلكم التّسلّطِ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ وجعل أهل مملكتِه أحزابًا لكي لا يقووا على الاجتماعِ ضدّهُ، والشّيعُ جمعُ شيعةٍ وهي الفرقةُ والطّائفةُ، وقيل: على طبقاتٍ اجتماعيّة؛ الطّبقةُ الحاكمةُ وهم مَلَؤُه؛ والطّبقةُ المترفة وهم الأقباط؛ وطبقة العبيدِ وهم الإسرائيليُّون، والذين قال فيهم: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يذلُّ جماعةً من أهلِ أرضه بالاستخدامِ والاستعبادِ، وتحويلُ التّعبير إلى المضارع بعد أن كان ماضيا فيه جلبٌ لِلأذهان لاستحضارِ الاستضعافِ وكأنّه حاصلٌ الآن، وأسلوبُ الآيةِ مبالغةٌ في ذمّ مَن اتّخذ مِن عرشه سبيلاً للظّلمِ والجورِ، كيف لا وقد ذكر بعدهُ أبعد ما تحتملُه الطّبيعةُ الإنسانيّةُ وهو ممارسةُ الذّبحِ في مَن هم مِن جنسه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يذبحُ من يولدُ فيهم من الذّكورِ ويستبقي على جنسِ الإناثِ منهم، وعبّر بالفعلِ المضعّف لبيانِ حزمه وإرادتِه في الفعلِ، وإن جاء قولُه: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] فقد وردتِ القصّةُ في أغلبِ المواضع بفعلِ الذّبحِ إشارةً إلى إرادته النّكالَ بهم ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ و إنّه بفعلِ التّفريقِ والذّبحِ وغيرِ ذلك قد كان من أهلِ الفسادِ، والتّعبيرُ بالكونِ دون إنّهُ كان مفسدًا؛ تحسينٌ للفاصلةِ وتجويدٌ للمعنى.

ومهما طغت السّياسات البشريّة فالسّلطةُ الإلهيّةُ فوقها، يقول الله تعالى ممتنًّا بإرادتِه في النّصرِ والتّمكين ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ونريدُ أن نتفضّل بالنّصرِ على بني

إسرائيل المقهورين في الأرض بالسُّلطةِ الفرعونيّة الغاشمة، واستعمالُ المضارعةِ فيهِ حثٌّ على استحضارِذلك المنّ، وفي كلا الموضعينِ يذكُرالمعنيّين بالصّفةِ دون الاسم ليقرّرَبأنّ المنّ بالنّصرِفضلٌ إلهيٌّ لكلّ من كانت هذهِ حالُه إذا صدقَ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ ونجعلهم أعلامًا يُقتدى بهم إلى الخير، ولعلّ في هذا كناية لتقويةِ جانبِهم وتكثيرِ أعدادِهم بعد أن أبادهم فرعون بالذّبحِ، وفيه إيماءٌ إلى أنّهم استحقُّوا التّمكين لأجلِ بذرةِ الصّدق الكامنةِ فيهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ونجعلهم مالكين زمام أمرِهم الذي كان بيدِ فرعون، وقيل: وارثين للنّبوةِ فتكونَ فيهم، أو وارثين لملكِ فرعون وقومه كما قال تعالى في جنّاتِهم: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الزّخرُف: ٢٨]. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ونُهيّئ لهم أسباب العيشِ القويّ الآمنِ في أرضِ مصرَوما اتّصلَ بها بعد أن أُذلُّوا فيها ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ونري فرعون ووزيره هامان وحاشيتهما من القوّات المسلّحة ما كانوا يخشونه من بني إسرائيل؛ وهو زوالُ ملكِهم بيدِ إسرائيليٍّ، وهو السّببُ الذي حمل فرعون على قتلِ ذكرانِهم -على حاجتِه في اتّخاذِهم خدمًا- وقيل: لأنّه خشي تكاثرهم الذي قد يُفضي إلى قوّتِهم واستيلائهم على مناصبِ الدّولةِ وهوسببٌ محصّلٌ لسابِقِه، وقيل: أراد بذلك تفنّنًا في النّكالِ بهم؛ على أنّ الآية لم تذكر بأنّ ذلك في حالِ الولادةِ فقط.

نَشأةُ موسى عليه السلام و انتقالُه إلى قصرفرعون ثمّ عودتُه إلى أمّه

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

ثمّ يشرعُ مفصّلاً في قصّةِ موسى عليه السلام وكيف مهّد الله لإنقاذِ بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وأوحى الله إلى أمّ موسى عليه السلام بأن تُرضع ابنها،[1] وفي هذا إشارةٌ بديعةٌ إلى أهمّ حقوق الولدِ بعد الولادةِ؛ فعلى أهمّيّة الابتلاءِ قد شاء أن ينال موسى حقّه هذا أوّلاً، والافتتاحُ بقضيّةِ الإرضاع فيهِ تلميحٌ إلى أنَّ إبعادَ ابنها عنه نشأَ عن حبٍّ بعد تعلّقها به وتعلُّقه بها؛ فطَعم لبنِها هذا سيمنعُه المراضع من بعدُ ليعود إلى أمّه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فإذا خشيتِ على ابنِك موسى من ظلمِ فرعون فاجعلِيه في صندوقٍ ثمَّ ارمي بهِ في البحرِ كما قال: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] واليمُّ من مرادفاتِ البحرِ وأصلُه الماءُ العظيم؛ فالمرادُ بهِ هنا نهرُ النّيلِ المشهورِ وجازت تسميتُه لعظمته بحرًا، وفي الآيةِ بيانٌ صريحٌ بأنَّ الله فوق الأسبابِ فقد صارَ عُرض البحرِ أوفرَ أمانًا لموسى من البلادِ كلِّها، وفي اختيارِ لفظِ الإلقاءِ براعةٌ في حثّها على دفعه عنها لأنَّ طبيعةَ الأمِّ تأبى ذلك، ومن تمامِ الامتحانِ أنّه كلّفت أن تقوم بذلك بنفسِها ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ ولا تخافي عليهِ بعد الإلقاءِ غرقًا ولا ضياعًا، ولا تجزعي من فراقِه لكِ لأنّه فراقٌ مؤقّتٌ وسيعُود إليكِ، والخوفُ توقّعُ مكرُوه والحزنُ غمٌّ يحصُل بعدَ المكرُوه، والنّهيُ عنهما نهيٌ عن رُكوب سببِهما من التّفكيرِ السّلبيّ وتضييقِ الآمالِ، وعلّل النّهيين بقوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ فإنّ الله سيرجعُ إليك ابنكِ موسى عليه السلام، وأكّد الجملة تحقيقًا لحصولِ الوعد، وعدل عنِ الفعليّةِ إلى الاسميّةِ لأنّها أقوى دلالةً على الثّبوتِ، واستعمل "إليكِ" زيادةً في الإيناسِ ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وسيجعلُه الله من حاملي الرّسالةِ السّماويّةِ، والتّنبيهُ إلى هذا إيناسٌ لأمِّ موسى عليه السلام بالباعثِ على هذا الامتحانِ وهو إرسالُ ابنها منقذًا لبني إسرائيل، يقُول القُطب: "جمعتِ الآيةُ أمرينِ ونهيينِ وخبرينِ وبشارتين".[2]

فسارالتابوت بموسى بأمانٍ على سطحِ البحرِ حتّى وصلَ إلى ساحلِ قصرِ فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فاكتشفه عمّالُ فرعون فأخذوهُ إلى أهلِ بيتِ فرعون؛ وهم لا يشعُرون بأنّهم

---

[1] وجمهورُ المفسّرين على أنَّ أمّ موسى ليست نبيّةً فليس ذلك شرعًا وليسَ وحيًا متجدّدًا، وتلقّيها الوحي ما هو إلاَّ إلهامٌ بحيثُ يستقرُّ في قلبِها أنَّ هذا الأمر الذي تُقبلُ عليهِ ليسَ إلاَّ توجيهًا إلهيًّا، وحُكي عن بعضِهم أنّه قد يكونُ عن طريقِ رُؤيا المنام، وعن آخرينَ قد يكونُ بلغها من نبيٍّ في عصرِها.

[2] محمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، ج١، ص٣٩٦. وهذهِ اللّفتةُ مستخرجةٌ من فحوى بيتينِ رواهُما الأصمعيُّ عن جاريةٍ أعرابيّةٍ في قصّةٍ حكاها القرطبيُّ وتبعهُ فيها مفسّرُون.

احتضنُوا من سيجدُونه بعدَ حينٍ عدوَّ حُكومتِهم الظّالمة وسببًا لوقوعِهم فيما من شأنِه أن يكون مفتاحًا للأحزانِ وهو العذابُ الإلهيّ، واللاّم في "ليكون" في أصلِها لامُ التّعليلِ بمعنى "كي"؛ وهي في معناها لحكايةِ عاقبتِهم التي لم يتوقّعُوها، وعدّهُ ذات الحزن مجازًا و إنّما هو سببٌ له ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ كانوا خاطئين في كل شيء ، فليس خطؤهم في تربية عدوهم بمستغرب منهم.

وقيل:إنَّ فرعون ووزيرهُ هامان ومَن حولهما مِن الجُندِ قد أخطؤُوا في رأيهم وسياستهم في إدارة مملكتهم بسبب عتوهم وظلمهم وما قرروه من قتل الذكور؛ وهذا أنسبُ بإعادةِ ذكرِ الجُندِ، ويرى مفسّرُون بأنّ الخطأَ هنا معناهُ مذنبُون في حقِّ الأبناء حيثُ مارسُوا الذّبح فيهم حتّى أبعدُوهم عن أحضانِ أمّهاتِهم، و أكّد الجملة فتضمّنت مع الإخبارِ تعجيبًا منهم

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ و أنطقَ الله امرأةَ فرعون فقالت لزوجها: دع لنا هذا الصّبيّ ليكونَ متعةً لنا في قصرِنا، وما تقرُّبه العينُ كنايةٌ عن الشّيء الذي يكونُ محلَّ إسعادٍ، وخصّت نفسها ابتداءً"لي" تذكيرًا له بمكانتها عندهُ؛ وخصّتهُ لزيادةِ إقناعِه بأنّه وإن كانت ستسعدُ به أوّلاً فهو لا يخلُو من فرحٍ به، ووراءَ موقِفها هذا تلميحٌ بأنَّه قد يكونُ للمرأةِ حظٌّ من صناعةِ القرارِ الحُكوميّ؛ وتأثيرٌبالغٌ في حياةِ العُظماء، وأنّ المعرُوف قد يتمثّلُ في إقناع شخصٍ بفكرةٍ ما ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ولا تفكّرُوا في قتلِه؛ وجميلٌ أن يكون هذا على سبيلِ الالتفاتِ للجندِ، ويجوزُ أن يكون خطابًا لفرعون خُصَّ به على سبيلِ تعظيمِه لاستجلابِ لُطفه، وقولُها هذا يوحي بوضعيّةٍ حرجةٍ كانوا عليها حتّى إنّهم لا يتورّعُون عن دمِ ضيفٍ في المهدِ ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ دعُوهُ لعلّهُ ينفعُنا للخدمةِ إذا اشتدَّ عودُه أونحسبُه ولدًا لنا؛ وقد قيل: بأنَّ امرأة فرعون كانت لا تلدُ، وهذا التّعلّق بموسى يعكسُ الحُسن الذي أودعه الله فيهِ إلى درجة أحزن الحاكمة العظيمة و أقرَّعينَ البُعداءِ به ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قالت لهم ذلك ولا أحدَ منهم يعلمُ مستقبلَ موسى عليه السلام الذي سيكونُ سببَ نهايتِهم غارقينَ في البحرِ، أو لا يدرُون بأنَّ إرادةَ الله تُسيّرُهم.

وطالَ غيابُ موسى عليه السلام واشتاقت الأمّ الحنون إلى فِلْذةِ كبدِها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ فصارقلبُ أمِّ موسى عليه السلام خاليًا من كلِّ شيءٍ إلاَّ من التّفكيرِ في ابنها؛ فهي استعارةٌ لهيئةِ الوعاء الذي

خلا ممّا يثقلُه فطارت به الرّياحُ وكأنَّ حال قلبِها كذلك،[٣] والفؤادُ يُطلقُ على لبِّ الإنسانِ وهو عقلُه، أو الفراغُ بمعنى النّسيان أي نسيان أمرِ ربّها، واختارَ بعضٌ أنّ الفراغ هنا خلوٌّ بالِها ممّا يخيفُها أو يُحزنُها تثمينًا لمدحِ الله لها بالرّبطِ على قلبِها، والمعنى الأول أنسب بسياق الآية ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ إنّها قد أوشكت أن تجهرَ في النّاسِ وتقُول: أرجعُوا ابني الذي ألقيتُه في اليمِّ جزعًا ممّا أصابها؛ وفي هذا إشارةٌ إلى ذروةِ صبرِها الذي رسمَ مرتبةَ إيمانِها، أو تُبدي بأنّه ابنُها مستعجلةً إخبارهُم بأنّ الله قد وعدها بردِّه إليها، و"إن" مخفّفةٌ من الثّقيلة واللاّمُ فارقةٌ بينَ كونِ "إن" نافية أو توكيديّة، وهذهِ الجملةُ جوابُ "لولا" تقدّم عليها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ شددنا عليه بالصبر والثبات والتقوية والتأنيس كما يربط الشيء المنكسر أو المتصدع فيطمئن ويقر والمعنى العام: أن الله ألهمها الصّبر الجميل، والرَّبط على القلبِ صورةٌ استعيرت لِذلك، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذلك الرّبط لأجلِ أن يتحقّق التزامُها بأمرِ ربّها بعدمِ الخوفِ والجزعِ فتكونَ من كاملي الإيمانِ بموعودِ ربّها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وأمرت أمُّ موسى أختَ ابنها لتسيرَ متتبّعةً آثارَ وليدِها؛ ويظهرُ أنّ هذا من أثرِ جهالتها به واشتدادِ شوقِها إليهِ، ومن يرى بأنَّ الأمّ قد علمت بأنَّ ابنها عندَ فرعون فسّر: تتبعّي ماذا يكونُ من شأنِه عندهُم، واختارَت الأخوّة مع أنّ البنوّةَ أولى لأنّها أدعى لكتمانِ أمرِها والتّعبيرِ عن شفقتِها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فسارتِ البنتُ فعرفت أخاها عن بعدٍ ولا أحدَ من أهلِ فرعونَ يُدركُ بأنَّها تستطلعُ وتستكشفُ عن الولدِ؛ وفي هذا دليلُ دهائها من حيثُ التّسلّل ومن حيثُ معرفةُ أخيها، وبصرَ بالشّيءِ حدّق النّظر فيهِ وهو أقوى من أبصرهُ، والجُنب الزّاويةُ البعيدة صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه عن مكانٍ جُنبٍ.

وإذا أرادَ الله تحقيقَ أمرٍ هيّأَ له أسبابه ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ وكان موسى عليه السلام من قبلِ أن تصلَ إليهِ أُخته قد امتنعَ عن تقبُّل أيّ مرضعةٍ تستجلبُ لهُ، والمراضع جمعُ مُرضعٍ وهي المرأة التي تُرضِع، والتّحريم تكوينيٌّ فهو قضاءُ اللهِ له بعدمِ الرّضاع إلاَّ من أمّه، والأقربُ لفحوى قصّةِ هذا

[٣] وتأوّلَ بعضٌ أنّها سمعت بخبرِ ابنها عندَ فرعون فجزعت وكادت تُبدي بهِ وهذا لا يتلاءمُ مع قولِها لأخته: قصّيه؛ كما أنّه لا يُعقل أن تصرّح بهذا في الظّرفِ الذي قد يجلبُ لابنها وبالاً بدلَ حماية.

الابتلاءِ أنّهُ تقبّل الإرضاع مدّةً ثمَّ حُرّم عليه تمهيدًا لعودته إلى أمّه[٤] ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ فهنالكَ تيسّرَ الأمرُ لأختِ موسى عليه السلام كي تعملَ لردِّ أخيها إلى أمّه فأعلنت في آلِ فرعون: هل أُخبرُكم على عائلةٍ تضمنُ لكم رعايةَ الوليدِ؟ وتمعّنًا في إخفاءِ أمرِها عبّرت بالاستفهام؛ ولم تذكر الأمّ؛ وتفنّنت في استلطافِهم -وهم أولو شرفٍ- فأشارت إلى أهلٍ وعائلةٍ أحرياء بالكفالةِ عامّةً؛ وأبدعت في الكتمانِ فبيّنت أنّ كلّ ذاك من أجلِكم ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وسيكونون قائمينَ بأمرِه أحسنَ قيامٍ، والنّصح للشّخصِ في فعلٍ عدمُ التّقصيرِ في القيامِ بهِ له، وعدلَ عنِ الجملةِ الفعليّةِ إلى الاسميّةِ لغرضِ التّأكيدِ؛ لأنَّ آل فرعون من شأنِهم أن يتثبّتُوا من مستوى الكفالةِ وطبيعةِ القائمينَ بها ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فشاءَ الله أن يكونَ ذلك سببًا لرجوعِ موسى عليه السلام إلى أمّه كي تسعدَ بوليدِها الغائبِ منذُ مدّةٍ ولا يشتدَّ حزنُها إلى درجةٍ لا تُطيقُه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ولتزيد الأمُّ برجوعِ وليدِها إليها استيقانًا بأنَّ الله صادق الوعد، وهذا شاهدُ القصّةِ وفيهِ درسٌ لنا للاجتهادِ لبلوغِ درجتها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غير أنَّ كثيرًا من النّاسِ لا يصدّقون بأنّ وعدَ الله حقٌّ تصديقًا جازمًا يدفعُهم إلى خوضِ غمارِ الامتحاناتِ الإلهيّةِ إلى آخرِها كي يفوزُوا كما فازت أمُّ موسى عليه السلام، وفي هذا تمريرٌ لرسالةٍ دقيقةٍ لقومِ مُحمّدٍ ﷺ تُثبّتُ المؤمنينَ من جهةٍ وتُهدّدُ الكافرينَ بأنَّ تطوّر أوضاع محمّدٍ ﷺ بينكم يُؤذنُ بزوالِ سُلطانِكم.

اكتمالُ قوّةِ موسى عليه السلام وواقعةُ قتلِه للقبطيِّ وبيانُ توبتِه

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾.

---

[٤] وإنّ ظاهرَ قولِ فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] يبيّنُ أنّه بقي مدّةً للرّعاية والتّربية؛ ثمّ بعدَ رجوعه إلى أمّه قد بقيَ تحتَ عينِ فرعون لأنّ الصّبيّ لا يبقى في الرّضاعِ سنين، أي أنّ فرعون قد التزم بالنّفقة على أم موسى اعتقادا منه أنه ينفق على مرضعة مرتزقة، وهذا مكمن قدرة الله وضعف فرعون.

ثمّ يطوي مراحلَ من حياةِ موسى عليه السلام ويأتي إلى مرحلة كمال رُشدِه العقليّ واكتماله الجسديّ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ وحين وصلَ موسى عليه السلام إلى سنٍّ اكتملت فيه قواهُ البدنيّةُ والفكريّةُ، وأَشُدّ جمعُ شِدّةٍ وهي القوّةُ، وعن مجاهد أنّه سنّ الأربعين استئناسًا بآيةِ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] وتباينت آراءُ المفسّرينَ في تحديدِ ذلك السّنّ إلى ما تحتَ العشرينَ؛ وفرّقُوا ما بينَ سنّ بلوغِ الأشدِّ وسنّ الاستواء؛ وعدّهُ بعضٌ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والمواضع؛ واختارَ آخرُون أن يكونَ سنًّا واحدًا في حقّ الرّسلِ يُبعثُون فيهِ وهو الأربعونَ ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أكرمنا موسى عليه السلام بالفهمِ والعلمِ تمهيدًا لبعثِه رسُولا، وعلى نحوِ إكرامنا له نكرمُ المحسنينَ كلٌّ حسبَ مقامِه، ولا يصلُح هنا تفسيرُ الحُكم بالنّبوةِ ولا العلم بالوحيِ لأنّهما لا يُعطيانِ إحسانًا بل تكليفًا وأمرًا، والمراد لَمّا حمل موسى نفسه على أن تتميّز بخصالِها العليا عدّ ذلك إحسانًا منهُ أُكرم بهِ بفتوحٍ من المعرفة والعلم ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ودخلَ موسى عليه السلام ذات يومٍ المدينة يجوب في نواحيها دون أن يعرف أحدٌ بأمرِه، ولعلَّ فائدةَ التّنويه إلى هذا الإشارةُ إلى أنّ موسى قد بدأهُم بالدّعوةِ حتّى جعلُوا له حدًّا ومضايقةً فصارَ لا يدخُل عليهم إلاَّ عن غفلةٍ، ومن جهةٍ إلى أنّ قتله للقبطيّ قد سُترَ عليهِ واستطاع أن يفرَّ بعدهُ، واختلف في تعيين المدينة التي دخلها؛فقيل: مدينة منف؛ وقيل مصروقيل غير ذلك ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ فرأى فيها رجلينِ يتشابكانِ اشتباكًا عنيفًا، وسببُ المقاتلةِ لم يذكروالظّاهر أنَّ ما بعدهُ يفسّرُه وهو الاختلافُ العرقيُّ، فهيَ إذًا لفتةٌ دقيقةٌ إلى الصّراعِ الطّائفيّ الذي رسّخه فرعون في رعيّتِه حيثُ جعلهم شيعًا ليستتبَّ له الحُكم ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أحدُ الرّجلينِ من الطّائفةِ الإسرائيلية التي ينتمي إليها موسى والرّجل الآخر من الطّائفة القبطيّة التي تكنُّ من القديمِ عداوةً للإسرائيليّين، والعدوُّ وصفٌ يصلح للمفرد والجمع، واختيارُ إشارةِ القربِ فيهِ تفنّنٌ حيثُ ناسبَ حالَ الاشتباكِ وكانَ أقوى في استحضارِه وكأنّهُ حاصلٌ الآن ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فنادى الإسرائيليُّ المغلُوب موسى عليه السلام يطلُب منه النّصرة على القبطيّ، وفي إعادةِ التّعبير بهذهِ الصّيغةِ تأكيدٌ للّفتةِ السّابقةِ حول الصّراع العرقيّ الذي رسّخه فرعون ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فتدخّلَ موسى عليه السلام دون تأخّرٍ فضربَ القبطيّ ضربةً أرداهُ بها قتيلاً، والوكزُ الضّربُ بمجمعِ الأصابِع، و"قضى" بمعنى:

أمات؛ فاعلُه محذوفٌ دائما؛ وتقديرُه: قضى قاضٍ عليهِ؛ وهو موسى أو الموتُ أو الله، ولا شكَّ أنّ موسى وقد أوتي الحُكم والعلم لم يرد بهذا الدّفعِ قتلاً ولكن وقع خطأً؛ ثمَّ إنَّ فهم وضعيّته الرّاهنةِ من الاحتقانِ العنصريّ تُبعدُنا عن الفهم السّطحيّ لإقباله على القتل ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وبالسّرعةِ التي أقبلَ فيها على القتلِ أسرعَ إلى التّوبةِ قائلاً عليه السلام: هذا الفعلُ من نزغِ الشّيطانِ الذي حملني على الحميّةِ والغضبِ، والتّعقيبُ بهذا فيه تقريرٌ بأنَّ موسى مع شدّةِ وضعه الجنائيّ قد فكّر قبل كلّ شيءٍ في عاقبتِه الدّينيّةِ، كما أنّه تقريرٌ بأنّ القتل في حدِّ ذاتِه منبوذٌ ولو حدثَ من شخصٍ كموسى عليه السلام في حقّ مشركٍ ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ إنّ الشّيطان هو العدوّ الحقيقيُّ الغاوي عن الحقّ وهو البيّنُ بغوايتِه وإن لم ترهُ الأبصارُ. وهكذا تضرّعَ موسى عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ يا ربِّ إنّي ارتكبتُ ذنبًا أهلكتُ بهِ نفسي فاعفُ عنّي، وفي كلامه هذا أسرارُ الإقبالِ على التّوبةِ؛ حيثُ استيقنَ بأنَّ الذّنبَ أيًّا كان توجدُ لهُ توبةٌ؛ وأنّ مقامه العالي عند الله لا يُغنيه عن طلبِ المغفرةِ؛ وبالغ في التّذلّلِ فعبّر بلفظِ الرّبوبيّةِ وبه افتتحَ دعاءهُ؛ وأحسَّ ضرورةَ توبةِ الله عليهِ فأكّدَ ظلمه لنفسِه مستشعرًا بأنّ الإصرار ليس لصالِحه؛ كما استعملَ فاءَ التّعقيبِ في طلبِ مغفرةٍ يُخصُّ بها مستوحشًا ابتعادهُ عنِ الله. وبمقابل هذهِ التّوبةِ استحقَّ المغفرةَ، وقد تقدم أن موسى قتله خطأ، إلا أن مقامه الرفيع جعله يعد ما وقع منه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بالمعنى الاصطلاحي الذي يعني تعمد المخالفة ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فقبلَ الله توبةَ موسى عليه السلام فغفر له ذنبه إنّهُ وحدهُ صاحبُ المغفرةِ الكاملةِ والرّحمةِ الشّاملةِ، والصّيغتانِ للمبالغةِ، وفي هذا بيانٌ بأنَّ الاجتهاد لا يُقاسُ بعدمِ ارتكابِ المعاصي فإنّ النّفس على سموّها قد تندفعُ إليها بل يُعرف بمدى خضوع المخطئ حال الخطأ؛ فأشرف الخلقِ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ عقّبَ موسى عليه السلام يستنزلُ عطفَ ربّه: يا ربِّ بسببِ إحسانكَ إليَّ بالتّوبةِ، ويرى ابن عاشُور أنَّ "قال" هنا أعيدت إيذانًا بارتباطِ هذا الكلام بكلام موسى السّابق فهو لم يوحَ إليهِ بعدُ؛ وعليهِ فما أنعم بهِ عليهِ هو اكتمالُ فكرِه ونظرِه إلى الأمورِ بثاقبِ الحكمةِ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لن أكون بعدَ اليومِ معينًا أهل العصيانِ على ما فيهِ سخطُك، أوردَ هذا بمعنى سوفَ أقفُ عندَ حدّي في الدّفاعِ المشروعِ لي؛ لأنَّ السّكوت على الظّلمِ فيهِ مجاملةٌ للظّالمِ والمجاملةُ مظاهرةٌ ومعاونةٌ له، ولعلّهُ عرّض بهذا إلى فرعون وجندِه الذينَ رسّخُوا منهجَ الاقتتال العنصريّ؛

ويُحتملُ عرّض بالإسرائيليّ حيثُ يرى بأنّه لو كان حكيمًا لم يفتح بابَ المقاتلةِ، والآيةُ فيها أدبٌ نبويٌّ في وجهٍ من وجوهِ شُكرِ النّعمةِ؛ وبيانٌ لإحدى سنن أهلِ الصّلاحِ وهي عدمُ التّزلّفِ للظّلمة.

مجريات ما بعدَ حادثةِ قتلِ القبطيِّ وفرارُ موسى عليه السلام خوفًا

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾.

وبعدَ مقتلِ القبطيِّ يبيّنُ الله ما كان من شأنِ موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فصارَ موسى عليه السلام يعيشُ في مصرَ يوميّاتٍ من الخوفِ والذّعرِ يتوقّعُ مكروهًا يلحقُه إذا انتشرَ خبرُه، وحقيقةُ التّرقّبِ الانتظارُ واستعيرَ هنا للحذرِ بقرينةِ ذكرِ الخوفِ قبله، والإشارةُ إلى هذا فيهِ درسٌ لنا كي نُفكّر في عواقبِ المعاصي بعد قضاءِ وطرنا منها والذي يُزيّنه الشّيطان في حدودِ نشوتِه الأولى فقط ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ فإذا به عليه السلام يرى الإسرائيليَّ الذي دافع عنه بالأمسِ القريب يُناديه يستنجدُهُ على قبطيٍّ آخرَ وقع في مقاتلةٍ معه، والأمسُ هنا هو قُبيل يومِ الاستصراخ بلا تحديدٍ؛ وتعريفُه عوضٌ عن المضافِ أي أمسِه، وخالفَ ما سلف تفنّنًا فعبّرَ عن الاستغاثةِ بالاستصراخِ؛ وهو رفع الصّوتِ للنّصرةِ أو غيرِها وهو كنايةٌ عن إرادتِه في تحريكِ نوازعه العرقيّةِ ولذلك أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ يالكَ من غاوٍ واضحِ الغوايةِ، والصّيغتان للمبالغةِ، كأنّه قال: ألا يكفيكَ أنّي ارتكبتُ جريمة قتلٍ بسببِك؟ وتريدُ أن توقعني في القتلِ مرّةً ثانيةً، وهذا اللّومُ ليس نزاعًا معه يقتضي عدم نصرته وإنّما أرادَ تقريعه على كثرةِ خصوماته أو على كونه يواجه من لا يُطيقُ؛ شأن الوالِد مع ابنِه قد يشدّدُ عليهِ قصد تربيتِه وهو في الأخيرِ فلذة كبدِه لا يتنازلُ عنه ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ وحينَ أقدمَ موسى عليه السلام يريد الفتك بالقبطيِّ الذي يعدّ عدوًّا له وللإسرائيليّ، ولقبُ العدوِّ يدلُّ على أنّه قبطيٌّ كسابقه، ولإزالةِ اللّبسِ من أنّ موسى أرادَ بالغويِّ القبطيِّ أعادَ ذكرهُ بصفتِه ولم يقل: يبطش به ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا

بِالْأَمْسِ﴾ صاحَ القبطيُّ في وجهِ موسى عليه السلام: هل تتجرّأُ على قتلي كما قتلت إنسانًا بالأمسِ القريبِ؟ والاستفهامُ للإنكارِ التّعجّبيّ، وإمعانًا في استعطافِه خاطب ضميرهُ الإنسانيّ فلم يسمّه بجنسِه العرقي، بل باسمه الشخصي ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾إنّك لا تريدُ يا موسى بهذا إلاّ أن تتعالى في البلادِ بقوّتِك ولا تُفكّرُ فيما يصلُح بين الخصمِ وخصمِه، وصيغةُ "جبّارا" صِيغت للمبالغةِ المناسبةِ لحدّةِ الوضعِ، وكأنّه قال: لقد صرت متمرّدًا عن القانون، وبين معنى الجبّارِ والمصلِح طباقٌ حسنٌ قد تقوّى به المعنى وتأكّد، وقولُ موسى الآتي: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [القصص:٣٣] يدلُّ على أنّهُ تركه؛ ليس خوفًا ولا استكانةً للظّلمِ و إنّما اتّباعًا لسنن الحكمةِ.

وهكذا حلّل القبطيُّ تصرّفَ موسى عليه السلام وعليهِ توسّع خبرُه في المدينةِ حتّى جاء من يُحذّرُه، ويُحتملُ أنّ مجيء الرّجلِ كان في حينِ محاورةِ القبطيّ لموسى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ وقصد رجلٌ موسى عليه السلام مسرعًا من أبعدِ حدودِ المدينةِ، وعن ابن عبّاسٍ هو مؤمنُ آلِ فرعون الذي يكتُم إيمانهُ استئناسًا بردّه على قتل موسى بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] والتّنبيهُ إلى هذا إشارةٌ إلى أنّ الله يُقيّضُ للحقّ أنصارًا ولو بُعداءَ ليُنجّيهم ولو على أشدِّ ضيقٍ يلحقُهم، وقيل: جاء الرّجل من جهةِ قصورِ فرعون وقد عرف موسى بنشأتِه فيها؛[٥] وقال الرّجلُ لموسى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أخبرُك بخبرٍ مؤكّدٍ: إنّ أشرافَ مصرَ يخطّطون لقتلِك، والائتمارُ مطاوعةٌ للأمرِ فدلَّ على تحمّسٍ في تلقّي الأمرِ وقبوله من أحدِهم للآخرِ، وفحوى النّظمِ يؤذنُ أنّها مخابرةٌ حُكوميّةٌ تُخطّطُ ضدّهُ؛ كما يُصدرُ إشعارًا مسبقًا يُرطّبُ خاطر الرّسُول محمد ﷺ بأنَّ قومك قد يُخرجونك كما أُخرجَ موسى عليه السلام ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فأنصحُك أن تُغادر مصر فورًا، وأكثرُ ما يستعملُ فعل النّصح معدّى باللاّم؛ وقدّم الجار والمجرور تجويدًا للفاصلةِ، ولعلَّ موسى بعد الحادثةِ اختارَ الاختفاءَ والتّنكّر فنصحهُ بالخرُوجِ، وفاء التّعقيبِ مع التّأكيدِ أفادت وجوب الفوريّة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فأخذ موسى عليه السلام الأمر بجدٍّ فخرجَ من مصرَ يتملّكُه ذعرٌ ويخشى سهمَ ثأرٍ يُصيبُه، ومن أصعبِ الابتلاءِ الخوفُ لأنّه توقّعٌ لمجموعِ بلايا كثيرة؛ وتزدادُ صعوبتُه حدّةً إذا طالت مدّتُه؛ وفي إعادةِ ذلك في الآيةِ إيذانٌ بطولِه، ولم يتوانَ عليه السلام فاستغاث الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

---

[٥] وممّا يروى: الأطراف منازلُ الأشراف؛ أي يختارُونها لسهولةِ الفرار منها حال الانقلابات عليهم.

يا ربِّ احفظني من كيدِ حُكومةِ فرعون الظّالمة، وعبّربعنوانِ القومِ إيماءً إلى أنَّ هذهِ الخصلةَ أصبحت متأصّلةً فيهم حتّى وكأنّها صارت من خصائصهم، وصحّ نعتهم بالظّلمةِ لشركِهم ولأخذِهم من قتل خطأً بالقتل وذلك ما لا يُقرُّه شرعٌ ولا عقلٌ، ومن اللاّفتِ أنّ موسى عليه السلام قد حافظَ على علاقتِه بالله بتوبته ليجده معينًا في الشّدّة، وإنّ القصّة في حيّزِ تأييدِ الله لموسى لدليلٌ على نبوّته؛ وقد بُسط مثلاً لهذهِ الأمّةِ كي يصدّقُوا بنبوّةِ مُحمّدٍ ﷺ المؤيّدِ هو كذلك.

سفرُموسى عليه السلام إلى مدين وقصّتُه مع المرأتين

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍفَقِيرٌ(٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾.

وتبدأُ رحلةُ طلبِ اللّجوءِ لموسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ وحينَ سلكَ جهةَ قريةِ "مدين"،[٦] وأصلُ "توجّه" استقبل الشّيء بوجهِه، وذكرُ التّوجّهِ المباشرِ لمكانٍ محدّدٍ دلَّ على أنّ موسى عليه السلام قد خطّطَ للتّوجّه نحو المكان الأنسبِ إلى جانبِ توكّلِه على الله ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ورفع أكفَّ الرّجاءِ قائلا: أرجو أن يسدّدني الله في رحلتي، وسواءُ السّبيلِ أعدلُه و أقومُه، ورحلتُه هذهِ من سنن أنبياء كُثُروصالحين هاجرُوا في الله، وفي دُعائهِ هذا تلميحٌ إلى انفرادِه وقلّةِ زادِه وإلى خوفِه وإلى جهلِه بأقربِ الطّريق وإلى تحتّمِ اتّخاذِ رحلتِه على مشوارٍ متّصلٍ لئلاّ يلحقُوهُ، وهو أيضًا دلالةٌ على تعلّقِه الشّديدِ بالله في كلّ حالٍ ولذلك أوصلهُ بأمانٍ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ ولمّا وصلَ إلى مدينَ نزل على موضع الماءِ حيثُ وجدَ جماعةً من النّاسِ يسقُون، وحذفَ

---

[٦] وهي نفسُ قريةِ النّبيءِ شُعيب عليه السلام وتقعُ على الضّفّة الغربيّة الجنوبيّة للبحرِ الأحمر.
إلاّ أنّ الشّيخ الكبير الذي سيُذكرُ فيها لا نُسلّمُ بأنّه هو شُعيبٌ النّبيّ إلاّ إن كان له نفس تسميته؛ كيفَ لا ومن عادةِ المفسّرينَ ترجيحُ من لم يُصرّح بنبوّتهم أنّهم ليسُوا أنبياء كالخضر ولُقمان، ثمّ إنّه لم يذكر هذا ولو بالإشارةِ في سياقِ دعوةٍ أو رسالة، والمرأتان قد اكتفتا بأنّه أبُوهما، هذا بغضّ النّظرِ عن تحقيقِ اجتماعِ موسى وشُعيبٍ في زمنٍ واحدٍ، وعليهِ فما جرى معه يستأنسُ به كآدابٍ حسنةٍ ولا يُعتبرُ شرعًا لمن قبلنا.

المفعول وتقديرُه: أنفسهم و أنعامهم، والورُود على الماء الوصول إليهِ للشّربِ، وقولُه: "ماء مدين" كنايةٌ عن أرضِهم لأنّ القرى كانت تعرفُ بماءِ بني فلانٍ، والأمّةُ الجماعة الكبيرة، ولعلّهم عدّوا كثرةً بالنّظرِ عمومًا إلى كتلةِ تجمُّعهم مع دوابّهم، والاحتشادُ دلَّ على أنّ الاستقاء كان من بئرٍ أو ما في حُكمها ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ ورأى بعيدًا عن الزّحمةِ امر أتينِ تدفعانِ أنعامهما لكيلاَ تختلطَ مع أنعامِ الغيرِ تحسّبًا لفرصةِ سقيٍ، والذّودُ الإبعاد، ولا ذكر للأنعامِ إلاّ بهذهِ الإشارةِ أو ما فُهم بطبيعةِ و اقِع القومِ، وهنا إشارةٌ إلى اشتغالِ المرأةِ للاكتسابِ حتّى في أصعبِ الوظائفِ إن احتاجت؛ وإنّ أزمةَ العانساتِ تزيدُها بعضُ المجتمعاتِ تعقيدًا باحتقارِ المرأةِ في إنجازاتها؛ وإن فُضّل الرّجل عليها في أمور فمن الأسباب قيامُه بما تقوم به امر أتان، ويبدُو أنّ طبيعةَ موسى عليه السلام انطبعت على حمايةِ حقوق الضّعفاءِ فقد همّهُ الوضعُ فتقدّم يسألُهما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ماذا تريدانِه من وجودِكما هنا؟ أو ما شأنُكما مع الأنعامِ تمنعانها عنِ الماء؟ والخطبُ الشّأن والطّلبُ الهامّ، ولسانُ الحالِ مغنٍ عن هذا السّؤالِ و إنّما افتتحَ به أدبًا لكي يعرفَ وجهَ المساعدةِ التي تريدُانها تحديدًا، ولا شكَّ أنّ ممارستهما لهذهِ الوظيفةِ قد رفعَ من مستواهما النّفسيّ فلم تحتاجَا للاشتكاءِ على حالتِهما بل أجابتا: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ من عادتنا ألاّ نتقدّم للاستقاءِ حتّى ينصرفَ الرّعاةُ عنِ الماءِ، ونسبَ القول إليهما معًا مع أنّه يتعيّنُ أن تُجيبه واحدةٌ للدّلالةِ على تعاهُدهما على هذا الأدب، وكونُهما وصلتا لتحمّلِ عناءِ الرّعي دلَّ على قوّةٍ لديهما إلاَّ أنّ أدب عدمِ مخالطةِ الرّجالِ قد ترجّح لديهما، واختيارُ المضارع يؤكّدُ ذلك، و"يُصدرُ" من الإصدار وهو عكس الورودِ، والرّعاءُ جمعُ راعٍ، ولباقةً في اختصارِ المحادثةِ الضّرُوريّةِ سدّتا باب التّساؤُلِ المفترضِ: وما بالُ أهلِكما لم يقوموا بهذا العملِ؛ بالقولِ: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ووالدُنا شيخٌ بلغَ سنَّ العجزِ، ووصفُ الكبر تأكيدٌ للعجزِ الحاصِل من الشّيخوخةِ، وفي موقفهما هذا أدبُ خدمة أبيهما المسنِّ، وتنبيهٌ إلى أنّ حشمة المرأةِ لا ينبغي أن تردَّها عن التّجاوبِ مع أمينٍ يرفعُ عنها الحاجة، و اكتفاؤهما بذكرِ الأبِ إيماءٌ إلى أنّهما لا تملكانِ كفيلاً آخر.

ولم يزد موسى عليه السلام على الحوارِ الضّروريّ فشرعَ في العملِ الخيريّ ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ فسقى للمر أتينِ وغنمِهما إكبارًا لأدبِهما ثمَّ عاد إلى الظّلِ مستريحًا، والفاءُ دلّت على شروعِه في العملِ وسط النّاسِ؛ كما أفادت "ثم" بأنّ المهمّةَ استغرقت وقتًا، وفي هذا دليلٌ على قيامِه بالمساعدةِ في وضحِ

النّهارِ ممّا يدلُّ على أمانِه من الخوفِ؛ وعلى أنّه اجتهد على صعوبةِ الحرّ وجهدِ السّفرِ؛ وهذا دون أن يرى بأنّ الخير لا يُسدى إلاّ في الكتمان، ثمّ ناجى ربّه مستنزلاً عطفه قائلاً: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يا ربِّ إنّي محتاجٌ لما تُكرمُ به عليَّ من الخيرِ، ومن أدبِ الآيةِ عبادة الله في أكرم الأحوالِ مادام المعيارُ هو الإخلاص فليس المنهكُ بأقرب إليه من المستريحِ المنعّم في الظّلِّ ونحوِه، وكذا أدبُ سؤال الله أوّلاً عند الحاجةِ، وسؤاله بعد عملٍ خيريٍّ لأنّه برهانٌ على شُكرِه، وطلب مطلقَ الخيرِ وألحَّ مناسبةً لوضعيّتِه فهو مهاجر لاجئ محروم، وفي الكلامِ محذوفٌ تقديرُه: فذهبتا إلى أبيهما في أسرع من ذي قبل وسمعَ خبر موسى فدعاهُ؛ ويُحتملُ: نقلتا إليهِ أيضا كلامه في الظّلِّ لأنّه أدعى لاستدعائه للأجر ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ فأقدمت إحدى المرأتينِ إلى موسى عليه السلام تسيرُ على احتشامٍ، ورجوعُ واحدةٍ فيهِ تنبيهٌ إلى أدبِ خروجِ المرأةِ أن يكونَ عند الحاجةِ فقط، وعموم القصّةِ فيهِ إشارةٌ إلى الأمانِ الذي ينبغي أن تعيشهُ المرأةُ في الأوساطِ؛ خلافًا لكثيرٍ من المجتمعاتِ اليوم حيثُ تتعرّضُ لمعاكساتٍ و إيذاءٍ حتّى وفي حالِ تحصّنِها، وإشارةٌ إلى أنّ الحياء هو تاجُ المرأةِ وليس بعده بأسٌ إذا كلّمتِ الأجنبيَّ لضرُورةٍ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قالت لموسى عليه السلام: إنَّ والدي يناديكَ ليُكافئكَ على مجهودِ عملِكَ الخيريّ في السّقيّ، ويُلاحظُ في كلامها إيجاز و إيضاح وشفافية تُغني عن أيّ تفتيشٍ في خبايا المعاني التي تتّسمُ بها محاوراتُ المتغزّلينَ، ويظهرُ أنّ موسى لم يمتنع عن العطايا المشروعةِ وهو محتاجٌ على نيّتِه في السّقي لله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وحينَ أقدمَ موسى عليه السلام على أبي المرأتينِ وحكى لهُ -على حالةِ النّزلاء عامّةً- مجرياتِ رحلتِه، وقد أبدعت الآيةُ في تصويرِ هذا الحدثِ فأوردتهُ مجرّدًا من كلّ دناءةٍ فكريّةٍ أو أخلاقيّةٍ لتُعلّمنا بأنَّ نفوسَ الأولياءِ والأبناءِ والبناتِ إذا كانت جميعًا رفيعةَ التّربيةِ سوف تعيشُ حياةً وسطًا أفضل من ثقافةِ الاختلاطِ ولكن لا تصِلُ إلى حالةِ الفصلِ الجذريّ بينَ الجنسينِ وكأنّهما ليسا من عالمٍ واحدٍ، وفي "قصَّ والقصص" جناسُ اشتقاقٍ، وتسميةُ السّورةِ ناشئةٌ عن هذهِ الآيةِ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: دع عنكَ الخوفَ فقد خرجت من حدودِ حكومةِ فرعونَ التي تُلاحقُك، وهذهِ بطاقةُ أمانٍ أهديت لموسى عليه السلام بعد طولِ خوفٍ، و ابتعادُه عن فرعون إلى خارج حدود مملكتِه يكشفُ عن طولِ رحلتِه، ووصفُه لهم بالقوم الظّالمينَ مصادقةٌ لموسى فيما يراهُ فيهم.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾.

ولم يذكر الجزاء الذي نالهُ موسى عليه السلام إضافةً إلى الاستضافةِ الكريمةِ، و انتقل مناسبةً لموضوع الأجرِ يحكي اقتراح إحدى المرأتينِ لأبيها حينَ قالت: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ يا أبي اتّخذ لك موسى أجيرًا في مهمّةِ الرّعي أو غيرِها، ومن الإحسانِ إلى والِدها عبّرت بلفظِ الأبوّةِ مستغنيةً عن لقبِ الشّيخوخةِ والكبرِ السّابقينِ اللّذينِ قيلاَ لغرضِ إيضاحِ الحالِ، و"أبتِ" مثل "أبي" السّابقة التّاءُ فيها عوضٌ عن ياءِ المتكلّمِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فإنَّ أفضلَ أحدٍ تتّخذُه للاستخدامِ هو المتّصفُ بالقوّةِ المعرُوف بالأمانةِ، وعرفت ذلك من براعةِ فطَانَتِها ولعلّ أباها قد استأجر قبله غيرهُ فلم يكن كذلك، وبدأَت بالقوّةِ لأهمّيّتِها فإنَّ الضّعيف قد لا يدفعُ السّوء وإن كان مأمونًا في نفسِه، وفي اقتراحِها هذا ثقافةٌ تربّت عليها بأنَّ للمرأةِ أعمالها التي تتلاءمُ مع طبيعتها؛ ولا تستنكفُ عن غيرِها إذا اقتضتِ الضّرُورة كما لا تزاحمُ الرّجال إذا كفوها.

ووراءَ ذلك الطّلبِ فراسةٌ في معرفةِ الرّجلِ الأنسبِ، وتنبيهٌ إلى مستوى الحوارِ الفعّالِ الذي ينبغي أن يجري بينَ الوليِّ وبناتِه، ولعلّها مهّدت بهذا أدبًا مع وليّها فقرأَ طُموحها، فكان سببًا لطلبِه موسى عليه السلام للزّواجِ فاقترح عليه: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ إنّي أرغبُ في تزويجكَ إحدى ابنتيَّ المعروفتينِ، وفي قولِه: "هاتين" إشارةٌ بأنّ له غيرهما، وهذا عرضٌ فحسبُ و إنّما صحَّ العقدُ برضا موسى وتحديدِ من يُريدُها، ويظهرُ أنّه تزوّجَ أوّلاً وكان مهرُهُ مؤجّلاً بحصولِ المنفعةِ من سنوات العملِ ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ على أن تعملَ لديَّ ثماني سنواتٍ، والحججُ جمعُ حِجّةٍ وهي السَّنة: مأخوذةٌ من شريعةِ الحجّ السّنويّةِ بحُكمِ وقوعها آخر السّنةِ القمريّةِ، وظاهرُ الآيةِ وجمهورُ المفسّرين أنّ منفعةَ العملِ في تلكَ السّنينَ هي مهرُ البنتِ بغضّ النّظرِ لمن ترجعُ المنفعةُ، إلى جانبِ حقوقٍ يستفيدُ بها من الإقامةِ وغيرِها قد تكونُ من عُرفِ القومِ، ويُحتملُ أنّ الشّيخ أحبَّ بقاءَ ابنتِه بجانبِه

مدّةً يتصوّرُ أنّه يدرِكها نظرًا لتزويجِها للأجنبيّ فاشترطَ ما يحقّقُ ذلك من العملِ عندهُ، والأجرُ سكتَ عنهُ كما سكتَ عنِ الأجرِ الأوّلِ ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فإذا زدت على الثّماني سنواتٍ حتّى تُتمَّ العشرَ فسيُعدُّ إحسانًا من عندكَ، وأهمُّ أربع صفاتٍ في الأجيرِ قد اجتمعت في موسى فقد سبقتِ القوّةُ والأمانةُ و إثباتُ خبرته في العملِ، وهنا إشارةٌ على مبدأ ثباتِه وصبرِه فيه، ومن أدبِ الزّواجِ في الآيةِ تزويجُ الوليّ لابنتِه؛ و ابتداؤُهُ بعرضِ ابنتِه للزّواج، وتخييرُ الشّابّ وتفويضُه فيمن يُحبُّ؛ على عدمِ إمكانيّةِ الجمعِ بين الأختينِ، واشتراطُ المهرِ وتحديدُه؛ وكلُّ ذلك محكيٌّ في سيرةِ نبيّنا ﷺ وسنّتِه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ ولا أريدُ أن أرهقك بما لا تُطيقُ، والتّكليفُ بالمستطاع قاعدةٌ نفيسةٌ في شتّى المعاملاتِ تُعدُّ بحقٍّ حكمًا أخلاقيًّا بين المتعاملينَ، والتّعقيبُ بهذا مؤذنٌ بأنَّ الشّيخ قد كان من المفروض أن يطلُبه بعشرِ سنواتٍ ابتداءً فخفّفَ مخيّرًا موسى عليه السلام في السّنتينِ الأخيرتينِ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وستراني يا موسى بإذنِ الله من الملتزمينَ بالعهدِ وبكلّ أدبٍ يقتضيهِ التّعامُل بيننا، وفي هذا تنويهٌ بأنَّ المستأجرينَ هم الأكثر عرضةً للتنصل من شرُوطِ العملِ بحُكمِ أنَّ السّلطةَ بأيديهم، وتعليقُه الأمر بمشيئةِ الله استعانةٌ بالله على بلوغِ الواجِب؛ وتسبيقٌ للاعتذارِ للأجيرِ من التّقصيرِ غيرِ المقصودِ. أجابهُ موسى عليه السلام ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ ما قلتهُ أمرٌ سنلتزمُ بهِ بيننا فلا أقصّرُ عن الثّمانيةِ ولا تُلزمني ما فوقها ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وأيُّ الأجلينِ التزمتُ به فلا اعتراضَ سيكونُ منك عليَّ، وهذا نوعٌ من ضبطِ العقودِ على وجودِ بعضِ المرونةِ فيها؛ زاده تَوْثِيقا بالجانبِ الرّوحيّ فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله شهيدٌ على كلّ ما اتّفقنا عليهِ؛ أي قد فوّض الأمرَ إليهِ ليُكافئ من وفّى ويُعاقب من تعدّى، وعموم الآيةِ يُصوّرُ آدابًا راقيةً ينبغي أن تكونَ بينَ الأجراءِ والمستخدمينِ وبالأخصّ إذا تعلّق الأمرُ بمن يُظنُّ هضْم حقّه كالعمالةِ الأجنبيّةِ، وحكايةُ هذهِ الآداب الموسويّة ومحطّاتِ حياتِه المتميّزة فيهِ تنبيهٌ لمن بلغتهُم دعوة الرّسُول ﷺ بأنّه صادقٌ؛ لاشتباهِ حالِه بحالِ موسى؛ بنشأتِه بعيدًا عن حضنِ أمّه وتميّزِه في أخلاقِه وزواجِه من أشرافِ النّساءِ وعملِه لديها وغيرِ ذلك.

مغادرةُ موسى عليه السلام لأرضِ مدينَ وتلقّيهِ الوحي بالذّهابِ إلى فرعون

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾.

ولَمّا اكتملت مراحلُ التّكوين النّفسيّ والاجتماعيّ لِموسى عليه السلام تهيّأَ للانطلاقِ إلى عالمِ الدّعوةِ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ ولَمّا أتمّ موسى الأجل الذي اختارَهُ، وعن ابن عبّاسٍ ومجاهد: أتمّ عشرَ سنين، ومن تمامه إيّاهُ يُستلهمُ أنَّ الشّيخ قد توافقَ على كبرِ سنّه مع موسى الشّابّ؛ فلا موسى تأفّف من عقليّةِ الشّيوخِ ولا الشّيخ تضايق من اندفاع الشّبابِ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ وأخذَ أهلهُ مسافرًا بهم، والاتّجاهُ كان إلى مصرَ بدليلِ ذكرِ طورِ سيناءَ ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ احتاجَ إلى استراحةٍ فوقعت عينُه على نارٍ مشتعلة في زاويةٍ من الجبلِ، والطّورُ مطلق الجبل؛ وهو أيضًا علمٌ على جبلِ سيناءَ الشّهير،[٧] و"آنس" من الإيناس وهو إبصارُما يُرتاحُ إليهِ، والاهتمامُ بجوانِب من القصّةِ براعةٌ في نقلِها ليستقرَّ في ذهنِ السّامعين المشركين بأنّ محمّدا لا ينقُلها من عندِه ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ قال لأهلِه الزموا مكانكم فإنّي وجدتُ نارًا، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ خدمةَ موسى عليه السلام لامرأته لا تزالُ قائمةً وإن كانت تقوى على خدمةِ نفسِها، وإعادةُ لفظِ (الأهلِ) تنبيهٌ لموجبِ خدمتِهم، والأمرُ بالمكوثِ تنبيهٌ إلى أنّه كان يسيرُ ليلاً لخوفِه من أن يُكشف أمرُه ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عسى أن آتيَ إليكم بأخبارِ الطّريقِ ممّن حولَ النّارِ؛ وهذا على حذفِ مضافٍ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وإن كانت نارًا مشتعلةً

---

[٧] والظّاهرُ من أقوالِ المفسّرين أنّ طور سيناء هو نفسُ الجبلِ الذي خرجت منهُ شجرة الزّيتون، وأُمر عندهُ موسى بالذّهابِ إلى فرعون، وكلّمه الله فيهِ حينَ تربّص أربعينَ ليلةً.

لوحدِها فسآتيكم بشعلةٍ منها لعلّكم تجدُون بها مبتغاكم من الدّفء، والجذوةُ العود الغليظ عليه شعلةٌ ناريةٌ، و"تصطلُون" من الاصطلاءِ بصلَى النّارِ أي طلبُ دفئها، والإشارةُ إلى النّارِ وطلبِ الدّفءِ دلَّ على أنّهم في سفرٍ ليليّ شتويّ.

وتقدّم موسى عليه السلام إلى النّارِ فإذا بهِ يستقبلُ خبرَ السّماءِ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ فحينَ اقتربَ موسى من النّارِ ناداهُ صوتُ الوحيِ السّماويّ ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ من جانبِ الوادِي الأيمنِ بالنّسبةِ إلى إتيانِ موسى؛ في مكانٍ طيّبٍ مباركٍ؛ وبالذّاتِ من الشّجرةِ القائمةِ في ذلك الموضعِ، وشاطئ الوادي ضفّتُه وجانبُه؛ وهو وادٍ في أسفلِ الطّورِ، و"الأيمن" عكس اليسار أي اليمين،[٨] والبقعةُ ما تميّزَ من الأرض وتُجمعُ على بقاعٍ، والبركةُ حاصلةٌ من خصوبةِ الموضِع وجمالِه ومن أنوارِ الوحيِ. وفحوى النّداء: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يا موسى إنّ الذي يُناديكَ هو وحدهُ إله العالمين وربُّهم، وفي هذا أدبٌ رقيقٌ من ربِّ الجلالةِ في التّعريفِ بالنّفسِ قبل المكالمةِ الهاتفيّة، وتهيئةٌ لموسى في تقبّلِ أوامر مَن مِن شأنِه ألاَّ يُردَّ له أمرٌ وهو المعبود الخالق. وعلامةً على صحّةِ ما يسمعُه نوديَ ثانيةً: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ارمِ عصاك على الأرضِ، يقُول القُطب: "والنّداءُ بصوتٍ خلقهُ اللهُ..."[٩] والمخالفةُ بينَ ألفاظِ القصّةِ وأساليبِها عبر مواطنِها في القرآن تفنّنٌ في جلبِ نشاطِ السّامعِ على ما فيهِ من إضافاتٍ لطيفةٍ دقيقةٍ ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ فحينَ أبصرَها وهيَ تهتزُّ كأنّها حيّةٌ عظيمةٌ، والجانّ ضربٌ من الحيّاتِ، وتنكيرُ اللّفظِ أفاد تعظيمًا لها ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ رجعَ أدراجه ولم ينتظر ولم يخْطُ خطوةً إلى الأمام،[١٠] وفي الآيةِ طباق السّلبِ بين "ولى مدبرا" و"لم يعقب" وقد ازدان به النّظم وتجمّل، وخوفُ موسى عليه السلام على قوّته وتجلّدِه دلَّ على هولِ الوضع. وعندها نادى الله موسى ثالثةً ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ تقدّم إلى جهةِ النّارِ ولا تخشَ شيئًا فإنّك

---

[٨] وقيل: ذلك من اليُمنِ والبركة لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النّازعات: ١٦] إلاَّ أنّ مواضع أخرى من القرآن تأبى إلاَّ التّفسير الأوّل كقوله تعالى الآتي: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] والغربيُّ في عُرفِ العربِ ما كان على اليمين.

[٩] محمّد بن يوسف أطفيّش: تيسيرُ التّفسير، ج١٠، ص٤٢٥.

[١٠] ينبغي أن ينتبه قارئ هذا العصرِ بأنّه مرّت على عصورِ الإسلامِ فتراتٌ من الرّكودِ المعرفيِّ والضّعفِ السّياسيِّ اشتغل فيها القصّاصُون بملءِ مجالسهم بشتّى الغرائبِ والأعاجيب يستقطبون من كُلّ مصدرٍ يجدُون فيه إثارةً للأفهامِ وجلبًا للجماهيرِ من العوامِ الغافلينَ؛ حتّى وجدت الواردات من القصص الإسرائيلي رواجًا في تلكَ السّوقِ تحتَ زعمِ أنّها من تفسيرِ ذلك الصّحابيِّ أو ذاك التّابعيِّ، وشيءٌ من ذاك قد حدث في تفسيرِ هذهِ الآية.

محميٌّ ولن يُصيبك ضرٌّ، وزادَ تأكيدًا لأمنِه بتحقيقِ الأمنِ إلى جانبِ نهيِه عن الخوفِ، وتعبيرُ الآيةِ أبلغُ وآكدُ ممّا لو قال: إنّك آمنٌ ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأدخل يدكَ في جيبِ قميصكَ وأخرِجها ترها بيضاءَ مُشِعّة من غيرِ أذى يلحقُ بها كالبرصِ، والسّلكُ الإمرارُ والإدخالُ، وفتحةُ الثّوب من الصّدرِ هي الجيبُ، ومن تمامِ البركةِ على موسى وهو لا يزالُ يتذكّرُ قتلهُ للقبطيّ أن يريهُ آلةَ قتلِه "يده" بيضاءَ رمزًا على سلامةِ ساحتِه ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ واترُك عنك الخوفَ من شأنِ الرّسالةِ، والجناحُ على رأيِ جمهورِ المفسّرينَ كنايةٌ عنِ اليد؛ وإذا وضعها على عضدِه كتمرينٍ رياضيٍّ زال ما بهِ من الخوفِ، واستحسنَ ابنُ عاشُور المعنى المجازي: واقبض جماح خوفِكَ كما يقبضُ الطّائرُ جناحهُ ليستقرَّ هادئًا بعدَ أن همَّ بالطّيرانِ خوفًا من أمرٍ ما، بتقديرِ: واضمم إليكَ جناحك بدلاً من أن تطيرَ خوفًا.[11] ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فتحوّلُ العصا حيّةً وخرُوج يدكَ بيضاء دليلانِ من الله قد بُيّنا لكَ لتذهبَ بهما إلى فرعون وحاشيتِه، وعُرض عليهِ الدّليلانِ تحديدًا لأنّهما أنسبُ بمقارعةِ الثّقافةِ السّحرية الشائعة عند الفراعنة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ إنّهم ناسٌ خرجوا عن صراطِ الحقِّ بالشّركِ ومختلِف المعاصي، وجعل ذلك من ميزاتِ قوميّتِهم بالتّأكيدِ بفعلِ الكونِ الماضي "كانوا" مبالغةً في ذمّهم؛ وإيحاءً إلى موسى عليه السلام بأنّه عليك جهدٌ عظيمٌ في ردهم إلى سواء السَّبيل.

اعتذر موسى عليه السلام لربّه متوسّلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ يا ربِّ قد قتلتُ قبطيًّا ينتمي إليهم فأخشى أن يقتلوني بسببِه، وتأكيدُه الخبر مع علمِ الله بحالِه للمبالغة في التّأسّفِ توطئةً للطّلبِ والدّعاء، وموسى عليه السلام يعلمُ أنّ توجيهاتِ الله لا تتركُ لعذرٍ وإنّما أرادَ أن يطمئنّ قلبُه بالأمانِ الذي سيُمنح له إذا هو قام لهذهِ المهمّةِ، وإقبالُه على أمرِ ربّه قد استُفيد من قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأخي الشّقيق "هارُون" أدرى منّي بخطابِ النّاسِ، وفي هذا رفعٌ من شأنِ الآخرِ؛ واستغلالٌ لمنافعِ القرابةِ؛ واحترامٌ لأصحابِ الكفاءاتِ؛ وإيمانٌ بضرُورةِ التّعاونِ في المجالِ الدّعويّ؛ وإن لم يُسجّل القرآنُ كلامًا لهارون عليه السلام توجّه به إلى فرعون أو ملئه، وهيَ أوّلُ إشارةٍ إلى أخيهِ في ترتيبِ أحداثِ قصّتِه بعد أن سبقتِ الإشارةُ إلى أُختِه؛ ففيه تلميحٌ لطيفٌ إلى أنّ الأخت عادةً

---

[11] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢، ص:١١٤.

أسبق بالنّفعِ لكونِها ألصق بالأمِّ، والآية لا تعني أن موسى كان كليل اللسان أو لا يقدر على الإفصاح، لأن الله قد حكى كثيرا من قوله في القرآن، وهو كلام في غاية الفصاحة والحكمة، ومن ناحية أخرى فلو كان بلسانه لثغة أو لكنة لعيره فرعون وقومه بذلك ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ فكلّفه بأن يأتي معي مُعينًا لي في مهمّتي يؤيّدُني فيما أدعو إليهِ، وليس المراد أن يقُول له: صدقت فذلك عمل يقدرُ عليه الفصيح وغيرُه؛ و إنّما أن يؤيّده بالحجّةِ تلوَ الأخرى لئلاَّ يخرسَ لسانه أمامهم، أو بمعنى: أن يكون سببًا لتصديقِ فرعون وملئه لي، والرّدء العونُ والحامي، وعلّل طلب الحمايةِ بأنّه خافَ القتل ثمّ علّل طلب الوزيرِ بأنّه خاف التّكذيب ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فإنّي أخشى أن يجتمعُوا على تكذيبي و إبطالِ حُججي، وقد تزيّن نظمُ الكلامِ بطباقٍ بينَ "يُصدّقني ويُكذّبوني".

أجابَ الله عبدهُ موسى عليه السلام فأعطاهُ ما طلب وزادَ عليهِ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنؤيّدك بأخيكَ هارُون، وفي هذا التّعبيرِ استعارةٌ لحالِ عاجزٍ تعثّرَ فشُدَّ بعضدِه لينهضَ، ولعلّها استعارةٌ بالتّحديدِ للرّباطِ الذي يلفُّ على الذّراع حينَ القيامِ بمجهودٍ صعبٍ لئلاّ يتضرّرَ الذراع بشيء ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ونؤيّدُكما بالبرهانِ القاطع، وأغلبُ ما يردُ السُّلطانُ في القرآنِ يُرادُ به القوّةُ لإبطالِ أمرٍ ما، ويجوزُ أنّه بمعنى: الرّهبة التي تُمنحُ لأولياءِ الله فيخافُهم الأعداء، وسبقَ الإذنُ بأن يكونَ هارُون معه؛ وزادَ عليه هنا أن سوّاهما في عطاءِ البرهانِ، ثمَّ أجابه في طلبِ الأمانِ قائلاً: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فلا يقوى فرعونُ وملؤُه أن يصلُوا إلى إضرارِكما البتّة، و"بآياتنا" يجوز أن يعلّق بالوُصول أي تُحفظونَ بسببِ معجزاتنا، أو يعلّق بسلطانٍ أي: نجعلُ لكما سُلطانًا بآياتنا فلا يصلُون إليكما، أو يعلّق بالغالِبين؛ والحاصلُ واحدٌ ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بسببِ ما عندكم من المعجزاتِ القاطعةِ ستكونانِ مع مَن تبعكم أعلى مقامًا من غيرِكم، وهذا نوعٌ من التّحفيزِ النّفسيّ العالي في أشدِّ وضعيّاتِ الخوفِ والضّعفِ، وأُجيز أن تكون الباءُ للقسمِ مناسبةً للتّأكيدِ، وفي هذا المقطعِ عبرةٌ لمشركي مكّةَ بأن يقارنُوا حياةَ مُحمّدٍ ﷺ بحياةِ موسى كيفَ أتاهُ الوحيُ؛ وكيفَ أُمر بأن يخرُج به لكبراءِ مكّةَ بلا خوفٍ من أحدٍ؛ وكيف أنّه مؤيّدٌ محميٌّ.

وصولُ الدّعوة إلى فرعون وملئه وتكذيبُهم لها وبيانُ عاقبتِهم

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾.

وتُطوى أحداثٌ طويلةٌ ثمّ يأتي إلى بيانِ أنّ موسى عليه السلام قد نشطَ مع أخيهِ للنّداءِ الرّبّانيّ وقام مبيّنًا طريقَ الهدايةِ لفرعونَ وقومه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وحينَ جاءهم موسى عليه السلام بدلائلِ نبوّته واضحةً من العصا واليدِ البيضاء، والمجيء متعلّقٌ بموسى وهارُون وأسندهُ إلى موسى فقط لأنّه الأصلُ في الرّسالةِ، ويظهرُ أنّه لم يُقصد بالآياتِ ذاتُها بل مدلُولاتُها من حقيقةِ الرّسالةِ وثبوتِ وحدانيّةِ الله لتتناسبَ مع ذكرِ(إله موسى) الآتي؛ ومع كونِهم لم يسمعُوا عنها في الأوّلينَ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ ردُّوا عليهِ مكابرةً وعنادًا وبأسلوبٍ يُؤذنُ برويّتِهم فيما يرونَ: لا يكونُ هذا الذي جئتنا به إلاّ من السّحرِ المكذوبِ أي ليس من الوحيِ المصدُوق، أو أرادوا: سحرًا مختلقًا لم يُسبق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ولم نسمع بشيءٍ ممّا تدعُو إليهِ فيما تركَ لنا أسلافُنا السّابقونَ من منهجٍ، والكلامُ على حذفِ مضافٍ لأنّهم لم يُدركوا آباءهم الأوّلين حتّى يسمعُوا عنهم، وهذهِ تُعدُّ من المغالطاتِ الكبرى التي أردت كثيرًا من الأمم؛ لأنّ شبيهًا من دعوةِ موسى قد كانَ من قبلُ؛ وهب أنّه لم يكن فهل يردُّ الحقُّ مع ثُبوته لأنّه لم يو افق عليهِ الآباء؟

ردَّ عليهم موسى عليه السلام مفوّضًا أمر تكذيبِهم إلى الله ومستغنيًا بعلمِ الله به عن علمِ آبائهم ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ الله هو العليمُ بالذي أُرسلَ بالهدى ودينِ الحقّ من عندِهِ؛ لأنّه هو مَن أرسلهُ، كأنّه قال معتزًّا: ربّي يعلمُ بأنّي صادقٌ ولا يضرّني كذبُكم، وهذا من السّلطان الذي

أُيّدَ به؛ ولا يبعُد أن يكون هارُون قد شاركَ أخاهُ موسى في صناعةِ هذا الجوابِ ونحوه ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ والله هو العليمُ بالذي ستكونُ له عاقبةُ الدّنيا الحسنة وهي الفوزُ الأخرويّ، أو يُقال أصلُ المعنى: الدّارُ العاقبة؛ فأضيفت الصّفة إلى موصوفها، وأرادَ بهؤلاءِ المؤمنينَ مع موسى بالأولى ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إنّ الظّالمينَ لن يفوزوا بعاقبةٍ حميدةٍ أبدًا، وتضمّنَ هذا تهديدًا لهم وتشنيعًا لإصرارِهم على الشّركِ والعصيان.

وكان من ردّ فرعون على دعوةِ موسى عليه السلام أن اجتهدَ في ترسيخِ عقائده الضّالّة في ملئه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أيّها الأشرافُ لم أجد لكم إلهً يستحقُّ الطّاعةَ غيري، أو المرادُ: ليس من شأني أن يخفى عليَّ أمرٌ كهذا ولو كان حقًّا لسبقَ لي علمٌ به، وجاءَ بالنّكرةِ "إله" في سياقِ النّفيِ فأفادَ التّعميم؛ و"مِن" صلةٌ لتأكيدِ ذلك، ومبالغةً في تضليلِ الرّأيِ العامّ أمروزيره ليبنيَ له برجًا عاليًا يخصّصهُ لهذا الأمر ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فأوقِد يا هامان النّار على الطّينِ من أجلي، وفي هذا كنايةٌ عن تهيئةِ عمّالِه للمادّةِ الأوّليَّةِ والشّروعِ في البناءِ وذلك بتكوينِ قوالبِ الطّينِ وإشعالِ النّارِ عليها لتتحجّرَ ثمَّ البناءُ بها، والعبارةُ من بدائع التّعبيرِ القرآنيّ عكست مقام فرعون في توجيهِ الأوامرِ الحُكوميّة في أقصرِ لفظٍ وأجمله وأعجزِه.[١٢] ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فهيّئ لي مقامًا عاليًا لعلّيَ أتمكّنُ من خلاله على استكشافِ إله موسى، وكرّر "لي" لمزيدٍ من الحثِّ على الاهتمام بمشروعه، والصّرح البناءُ الشّامخ، و"أطّلع" افتعالٌ من أطلعُ مبالغةً لأنّه طلوعٌ خاصٌّ، واستعمالُه التّرجّي دلّ على عدمِ اقتناعه بأنّ الصّرح كافٍ لتحقيقِ مبتغاهُ، ويظهرُ أنّ الاتّجاهَ إلى البناء مع وجودِ بدائل للاطّلاع معناهُ أن يعيّن من يكون دائم المراقبةِ والبحثِ فيهِ ربحًا للوقتِ في التّمويهِ لا أن يطّلع بنفسِه مرّةً واحدةً.[١٣] ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وإنّي أحسبُه كاذبًا في أنّه ثمّةَ إلهٌ

---

[١٢] وللعُلماء والباحثين وقفاتٌ إعجازيّةٌ في هذه الآية استلهموا منها بعض أسرارِ الحضارة الفرعونيّة؛ من ذلك ما حكاهُ القُطب يقُول: "لم يقل: اصنع؛ لأنّه هو الذي علّمهم صنعه" أي بدأَ ذلك في حضارتهم. يُنظر: المحمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، ج١٠، ص٤٣٢.

[١٣] وهذا التّأويل يدفعُ كثيرًا من التّساؤلات التي طرحها المفسّرُون: كيف لفرعون أن يُفكّر في بناءِ صرحٍ يبلُغ به عنان السّماء؟ ثمّ كيف يصعدُ فيه بنفسه؟ وهل يحتاجُه أكثر من مرّةٍ مع كلّ هذا؟ فضلاً عن زعمِ بعضٍ بأنّه بناهُ فتهدّم لأنّه لم يبنه بالحجارة نظرًا لأنّه لا يحتاجُه طويلاً.

غيري، والظّنُّ هنا علمٌ قاربَ اليقينَ، وتأكيدُه يدلُّ على أنّ فرعون يبحث في سبُلِ التّثبّت غير متجرّدٍ وكأنّ النّتيجةَ قد حُسمت لديه، ويجوزُ أن يكونَ هذا الأمر الحكوميّ تهكّما محضا بموسى عليه السلام فلا صرحَ يُبنى ولا اطّلاعَ يحدُث.

ويُعقّبُ الله على موقفِ فرعونَ هذا بقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقد تعالى فرعون ومن معه من الجندِ في أرضِ مصرَ بالحُكم الظّالم والسّياسةِ الجائرةِ، والسّينُ والتّاءُ في الفعلِ للمبالغةِ في تصويرِ كبر مَن زعمَ أنّه يقوى على إدراكِ إلهه، وحسُن التّعبيرُ بعمومِ الأرضِ إذ كانُوا يومها من أعتى الأمم عليها، ولا يكونُ للاستكبارِ وجهٌ من الحقّ، فقوله "بغير حق" المرادُ به تهويلُ أمرِهم بأنّه باطلٌ لا ينبغي أن يكونَ، وعلّلَ سببَ توغّلِهم في الظّلمِ فقال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ حيثُ زعموا بأنّهم في منعةٍ من أمرِهم ولن يعادُوا إلى الله ثانيةً ليُحاسبُوا، و أثبت قبلُ كفرهم بالله وزاد هنا بيان كفرِهم بالبعثِ. ثمّ يشيرُ إلى إبطالِ زعمِهم وقهرِهم على الرّجوعِ إليه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فكانَت نهايتُهم الإغراق في البحرِ، والأخذُ مجازٌ عن إخراجِهم استدراجًا من قصورِهم، ومن البراعةِ استعمالُه للفظِ "النّبذِ" وهو الرّميُ والطّرحُ؛ وقد سبقَ في حقّ موسى الوليدِ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص:٠٧] ليُعلّمنا بأنّ القدرةَ الإلهيّة إذا تدخّلت استطاعت أن تنجي من يُظنُّ غرقُه وتُغرق من تُظنُّ نجاتُه، وفوق ذلك أن يكونَ من أُغرقَ اليوم قد كان سببَ غرقِه إنسانٌ أنجاهُ بالأمسِ؛ وهو معنى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٠٨] ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فتأمّل إلى نهايةِ الظّالمينَ الوخيمةِ، والخطابُ شملَ كلّ ذي عقلٍ واعٍ، وفيه تسليةٌ لا تخفى لقلبه ﷺ ممّا يجدُه من قومه، وهو شاهدُ العبرةِ لنا كي نصدّقَ نبيّنا ونتبعَه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ وجعلناهُم في حياتِهم دعاةً يضلّلُون النّاسَ عن الحقّ بالخداعِ أو القوّةِ؛ وهي دعوةٌ إلى موجباتِ النّارِ وعدّها دعوةً إلى النّارِ مجازًا، ولا شكَّ أنّ أيّ نفسٍ كانت على الفطرةِ فإذا رشدت اختارت طريقًا تجدُه وبناءً عليهِ يخلُق الله فيها الإقبال على ما اختارت؛ فذلك هو الجعلُ في الآية، والأئمّةُ القادةُ في الخيرِ أو الشّرّ، وأصلُ عملِهم بثٌّ للضّلالةِ وسمّاهُ دعوةً إلى النّارِ بالنّظرِ إلى عاقبةِ عملِهم وإن لم يؤمنوا بها، وبدعوتِهم إلى النّارِ ثبُت أنّهم من أهلِها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ويومَ يقومُ النّاسُ لربِّ العالمينَ ليُحاسبَهم لا يكونُ للظّالمينَ نصيرٌ يحميهم من عقابِه، هذا عكس حالِهم في الدّنيا إذ كانُوا بغلبتِهم

يعتمدُون على بعضهم ﴿وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يجوزُأن تكون هذهِ إشارة إلى خاتِمتهم السّيّئة في حادثةِ اليمِّ، والظّاهرُ أنّ المعنى: ألحقهم الله بعدَ موتِهم شؤمًا يذكُرُهم به كلُّ أحدٍ، وهذهِ اللّعنةُ كانت جزاء وفاقًا لهم حيثُ سطّرُوا منهجَ ضلالٍ استمرَّ فيمن بعدهُم، وإشارةُ القربِ لتهوينِ لعنةِ الدّنيا أمام الوعيدِ الأخرويّ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وحينَ يُبعثُون يوم القيامةِ سيكونون من المبعدينَ، والمقبُوح المذموم ومن شأنِ الشّيءِ المذموم أن يُبعد فهي كنايةٌ عنِ اللّعنةِ الأخرويّة، ويجوزُأن يرادَ به سوءُ صورتِهم يومها الدّالةِ على سوءِ فعالِهم، واختار الجملة الاسميّة هنا لأنّها أقوى في إثباتِ القبحِ وتصويرِه.

وبعدَما طوى صفحةَ الحكومةِ الفرعونيّةِ يتحدّثُ إجمالاً عن شأنِ موسى مع الإسرائيليّين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ ولقد أكرمنا رسُولنا موسى عليه السلام بالتّوراة بعد أن أهلكنا الأمم السّابقة قوم نوحٍ وعادًا وثمود وغيرَهم ويدخُل فرعون وقومه فيهم، لأنّ التّعبير بالأُولى مجازٌ عمّا تقدّم، وسمّيت الأمم قرونًا لأنّه من شأنها أن تُعمّر قُرونًا، واللاّمُ في "لقد" ممهّدةٌ لقسمٍ، وفائدةُ التّأكيدِ بالقسمِ تقريرُ عدالةِ الله فيهم ببعثِ الرّسُول و إنزالِ الكتابِ ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أكرمناهم بالوحيِ السّماويّ ليكون لهم نورًا بعد حياةٍ من الظّلماء؛ وطريقًا مستقيمًا على كثرةِ شُعبِ الضّلالِ الملتفّةِ؛ ومنهجَ رحمةٍ يرفعُ عنهم شقاءَ الحياةِ وضنكها، ولم يُسمِّ كتابَ موسى تنويهًا بأنّ كلّ كتابٍ سماويٍّ من شأنِه أن يكونَ كذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وكلّ ذلك كي يتذكّرُوا الله فيعبُدوه وحدهُ، ولعلّ في القرآنِ أغلبُ ما تردُ للتّعليلِ بمعنى: لكي، أو للإرادةِ الإلهيّةِ المشبّهةِ بالتّرجّي البشريِّ بمعنى: نريدُ أن يتذكّرُوا.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾.

وبعد صفحاتٍ من قصّةِ موسى يتفرّغُ إلى استخلاصِ بعض العبر منها ملتفتًا بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ يؤيّدُه في شأنِ نبوّته ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ولم تكن حاضرًا يا محمّد ﷺ بجانبِ الطّورِ الغربيّ حينَ أوحينا إلى موسى بما أوحينا، وأصلُ الكلام بالجانبِ الغربيّ أي بالنّسبةِ إلى موسى، أو هي كنايةٌ معرُوفةٌ لدى العرب عن الجهةِ اليمنى والتي بها جبلُ الطّورِ، ولمّا كان الحاضر في موضِع قد يتّصفُ بالذّهولِ عمّا فيهِ أكّد المسألةَ فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ولم تكن من المتابعينَ لما جرى في شأنِ موسى، وقيل: أريد بالشّاهدين الملائكة ونحوُهم من الخلائق التي يُمكنُ أن توجدَ حينها في موضع الجبل، وقيل: هم الذينَ بلغتهم أخبارُ موسى الثّابتة بوحيٍ قبل القرآن، والمرادُ بهذا إفحامُ المشركين: من أينَ لمحمّدٍ أن يعلم بتفاصيل ما جرى لولا الوحيُ، ومن السّياقِ يتبادرُ سؤالٌ: هلاّ بقيت آثارُ الرّسالة الموسويّة لتكون بصيرةً وهدى للنّاسِ كما بدأت؛ فيجيبُ: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ غيرَ أنّنا خلقنا أممًا كثيرةً بعد موسى فامتدّ بهم الزّمن على غفلتِهم؛ وفي الآيةِ معنًى حُذف استغرا قًا في الإيجازِ عمّا عُلم بمقتضى المقام والتّقديرُ: حتّى صارَ من شأنِهم تبديلُ الرّسالات وعدمُ قبول الحقّ كيفما جاءَ ولذلك ردُّوا دعوتك يا مُحمّد ﷺ فأرسلناك مجدّدًا، والقرُون الأمم، ويجوزُ عودُ ضميرِ "عليهم" لأهل مكّةَ ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ولم تكن

يا مُحمّد ﷺ مقيمًا بينَ أهلِ مدينَ حتّى تسمع بما جرى في شأنِ موسى، وضميرُ "عليهم" عائدٌ لأهلِ مدين على الأرجح؛ وتأويلُ المعنى: لم تعرض على أهلِ مدينَ هذهِ القصص ليُؤكّدُوا لك صحّتها قبل نشرِها بل تلقّيتها بالوحيِ؛ فهو ردٌّ على من قالُوا يُعلّمُه بشرٌ[١٤]، وهو تأكيدٌ للاحتجاجِ السّابق من أنّ الغائب عن مكان قومٍ وزمانهم لن يستطيع سردَ ما جرى فيهم بلا مصادرَ يجدُها بين يديه فكيف إذا كان أمّيًا غيرقارئ، و"ثاويًا" من ثوى بالمكانِ إذا أقام به ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وفي الحقيقةِ قد أرسلناك للنّاسِ اليوم، والمقام يقتضي أن يقُول: ولكنّا أخبرناكَ بذلك؛ فعبّر بما أوردَ الحديث من أجله وهو إثباتُ الرّسالةِ لمحمّدٍ ﷺ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ولم تكن بجانبِ الطّورِ الأيمنِ إذ نادينا موسى بالذّهاب إلى فرعون الطّاغي، والآيةُ تأكيدٌ لسابقتها على الظّاهرِ، غير أنّه يحسُن تفاديا للتّكرير تفسيرُ النّداء هنا بموقف موسى لميقاتِ ربّه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو الواقع في نفسِ الطّورِ لكن بعد مدّةٍ طويلةٍ ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ما كان علمُك بقصّةِ موسى عليه السلام بحضورِك بجانبِ الطّورِ ولكن بوحيٍ سماويٍّ تلقّيتهُ جاءت فيه هذهِ القصص، وعبّر بالرّحمةِ عن الوحيِ تنويهًا بأهمّيّته، ونُصب رحمةً على أيسرِ التّقديرات بفعلٍ أي: ولكن أعطيناكَ رَحمةً، ولم يقل: منّا وأظهر اسمهُ واختار لفظَ الرّبوبيّةِ ثمّ أضافهُ إلى شخصه ﷺ إبرازًا لعنايته به ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بعثناكَ لكي تُنذر ناسًا لم يسبقهُم نذيرٌ قبلكَ ليُنذرهم، والمراد بهؤلاءِ قريشٌ الذين بعث الرّسُول فيهم، وفي الآية تعليلٌ لاختيارِ مبعثِه ﷺ فيهم حيثُ انطمست فيهم معالمُ الرّسالاتِ على أهمّية منطقتِهم تاريخيًّا، واختار صفةَ النّذارةِ مناسبةً لتوغّلِهم في الشّركِ والظّلمِ؛ والمنذرُ من خطرٍ قد رحمَ من أنذرهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أرسلناك إليهم لأجلِ أن ينظروا فيما يُصلحُ أحوالهم فيفهموا بأنّهم عبيدُ الله فيذعنُوا له ويتّبعُوا رسُوله.

ولَمّا كان الإنذارُ من شأنه أن يكون بين يدي عذابٍ قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولولا قولُ الكفّارِ إذا أصابتهم مصيبةٌ عظيمةٌ كالقحطِ والخوفِ بسببِ طُغيانِهم: ربّنا هلاّ أرسلت إلينا رسُولاً لنتّبع منهجك

[١٤] وذهب مُقاتل وأيّدهُ ابن عاشُور إلى أنّ ضمير "عليهم" عائدٌ إلى مشركي مكّة؛ بتقديرِ معنى: ولم تكن حاضرًا بصفتك مسافرا في أهلِ مدينَ ثمّ ترجعُ عنهم فتنقُل أخبارهُم تُحدّث بها قومك كما يُحدّثُ المسافرُون بأخبار البلاد التي أتوها.

ونكون مؤمنين بك حقًّا، وجوابُ "لولا" الامتناعيّةِ الأولى محذوفٌ إيجازًا للعلم به وتقديرُه: لَما أرسلناك إليهم لأنّهم أهل عنادٍ؛ والمراد: أرسلناك إقامةً للحجّةِ قبل أن يحتجُّوا ورحمةً بهم لأنّا أغنياء عن تعذيبِهم، وما قدّمتهُ الأيدي كنايةٌ عن الأعمال؛ وفيه مجازٌ بإطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ لأنَّ اليد أصل مزاولةِ الأعمالِ، وفي "تُصيبهم مصيبةٌ" جناسُ اشتقاقٍ وهو من ملطّفاتِ الكلام،

ثمّ يبيّنُ أنّ اعتذار الكفّارِ بإرسالِ الرّسولِ باطلٌ حيثُ إنّه مع مجيئه كذّبُوهُ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ وحينَ جاءَهم الرّسُول ﷺ بالقرآنِ البيّنِ من الله اعترضوا على سبيلِ العنادِ والتّعنّت: هلاَّ كان لمحمّدٍ ﷺ ما كان لموسى من المعجزاتِ والوحيِ، وقيل: الآيةُ في اليهودِ الذين كان الكفّارُ يسألونَهم عن شأنِ مُحمّدٍ ﷺ وقد عدّوا في قالبٍ واحدٍ لَمّا اشتركُوا في صناعةِ الاعتراضِ. يردُّ الله عليهم مخاطبًا الرّسُول ﷺ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ألم يكن الكفّار واليهود من قبل بعثِ محمّدٍ ونزولِ القرآنِ قد كفرُوا برسالةِ موسى عليه السلام ومعجزاته، وجمعُ الكفّارِ معهم باعتبارِ أنّ كفرهُم بنبيٍّ واحدٍ كفرٌ بالكلِّ؛ وأرشقُ منهُ أن يُعدَّ تحالُفهم مع اليهودِ في ردِّ الوحيِ داعيا لمتابعتِهم في كلِّ ضلالٍ عقديٍّ، وإذا جرّدنا المعنى للكفّارِ فباعتبارِ أنّ رسالةَ موسى متّجهةٌ للعربِ أيضا ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ومن كُفرِهم ذلك ادّعاؤُهم أنّ القرآن والتّوراة مصدران للسّحر يُقوّي أحدُهما ما جاءَ في الآخر، وعدُّهما ذاتُ السّحرِ مبالغةٌ، وفي ورشٍ ﴿سَاحِرَانِ﴾ إشارة إلى موسى وهارُون عليهما السّلام بأنّه قد استعانَ أحدُهما بالآخر لإخراج التّوراة، أو إلى موسى مع مُحمّدٍ باعتبارِ أنّ المتأخّر استعان بالمتقدّم ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ وصرّحوا بناءً على تعنُّتِهم بأنّهم كافرُون بالتّوراةِ والقرآنِ على السّواء، ويجوزُ أن يراد: بكلّ رسُولٍ أو كتابٍ على هذا النّحو، والتّصريحُ بالقولِ "قالوا" مع التّأكيدِ بحرفِ التّوكيدِ و"كلّ" ثمّ اختيار الجملةِ الاسميّة إمعانٌ في تصويرِ غيّهم.

وزيادةً في بيانِ ضلالِهم تحدّاهُم على وجهِ التّعجيزِ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ قل لهم يا محمّد ﷺ: إذا لم تُؤمنوا بالتّوراة والقرآن على ما تضمّناهُ من أبدعِ التّعاليم وأجملِ الوصايا، فأخرجوا لنا كتابًا من الله يكونُ أقوى من القرآنِ والتّوراةِ ولكم منّي عهدٌ أن أتّبعه؛ وفي هذا غايةُ التّحدّي ومبلغُ التّعجيزِ، وقولُه: "من عندِ الله" أُقحم مدحًا للكتابين في سياقِ التّعجيز[١٥] ﴿إِنْ

[١٥] ويرى مفسّرُون أنّ عموم الآية نبّه إلى أنّ القرآن والتّوراة من أشملِ الكُتبِ السّماويّةِ.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فافعلُوا ذلك إن كنتم صادقي الادّعاء، أو فافعلُوا ليصحَّ برهانكم بأنّ القرآن والتّوراة سحرٌوكذبٌ. ثمّ يؤنسُ الله قلب صفيّه ﷺ ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإذا لم يُقبلُوا على ما تدعوهم إليه فاستيقن بأنّهم يستجيبُون لأهوائهم فقط لا للحقِّ مهما ظهرَ لهم، و"أنّما" أفادت الحصرَ، أو إذا لم يستجيبُوا للإتيانِ بكتابٍ؛ والأوّل أظهر لأنّ الاستجابة تكون بعد طلبٍ وما سبقَ أقربُ إلى التّعجيزِ منهُ إلى الطّلب، و إقحامُ "اعلم" أفاد حثًّا على الاهتمام بالخبرِ، والتّعقيبُ بهذا إخبارٌ بعجزِهم ممّا يقوّي جانب الرّسُول ﷺ بأنّه يعلمُ من الله أحوالهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ وليس أبعد في الشّقاوةِ ممّن يذعنُ لهواهُ تاركًا هدى الله المستقيم، وكونُه الأضلّ باعتبارِه سلكَ مسلكًا معاكسًا لهدى الله كلّيةً؛ المنهج الذي من شأنِه أن يكون معصومًا من أيّ نقصٍ أو زلل، وباءُ "بغير" للملابسةِ، ومتّبعُ الهوى وإن صادف الحقَّ شكلاً فقد خالفه روحًا؛ فالمرادُ "بغيرِهدى" تشنيعُ حالِ متّبع الهوى، والآيةُ سيقت بطريقةٍ بديعةٍ لتُحفظ في صورة قانونٍ إلهيٍّ يشملُ هؤلاءِ وغيرهُم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إنّ الله لا يوفّقُ الظّالمينَ المصرين على ظلمهم إلى الهدايةِ؛ ظلمًا لأنفسهم باتّباعِ طريق الهوى المعاكس للحقّ؛ وظلمًا للذي جاءهم بالحقّ بردّ منهجِه الذي فيه هدايتُهم، وجدّد لفظ الجلالةِ ليجري المقطعُ مجرى المثلِ.

وفي سياقِ إثباتِ رسالةِ محمّدٍ ﷺ ينوّه بشأنِ وصولِ القرآنِ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ ولقد أوصلنا إليهم القرآن، واللاّمُ و"قد" تأكيدانِ إضافةً إلى التّشديد في "وصّلنا" إيقاظًا لمن جهل حكمةَ وصولِ القرآنِ إليهِ، والفعلُ"وصّلنا" فيه معنى الإبلاغ على المعنى الأرشق والأعمّ؛ ويندرجُ في ذلك معنى المتابعة، أي تابعنا إيصاله آيةً آيةً؛ أو أتبعنا مواضيعه بعضها ببعضٍ، وفي ذكرِ"لهم" مع تقديمِه إظهارُ مزيّةٍ خصّهم الله بها، واختيارُ تسميّته بالقولِ هنا إشارةٌ رائعة بأنَّ الله قد قيّض لكتابِه إلى جانبِ حفظِ كلماته مَن يُوصلُ معانيه للنّاسِ على اختلافِ أجناسِهم وأزمنتِهم وأمكنتِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عسى أن يعرفُوا من خلاله سرَّوجودِهم في الحياةِ وهو الإذعانُ لله وعبادته وحدهُ.

إيمانُ بعضِ أهلِ الكتابِ بالقرآنِ والإشادةُ برفيعِ خصالِهم

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾.

ثمّ يمدحُ الله أهل الكتابِ الصّادقين إغراءً للذين لم يتذكّرُوا بالقرآنِ بأن يقتدُوا بهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ اليهودُ والنّصارى الذين وصلَت إليهم التّوراةُ والإنجيل من قبل هذا القرآن قد أذعنُوا للقرآنِ وآمنوا به، و إيرادُ ضمير الفصلِ "هم" وتقديمُ "به" أفادَ تقويةً للإخبارِ بأنّهم آمنُوا على كُفرِ مَن كان إلى الإسلامِ أقرب، وفي استعمال المضارع زيادةٌ في مدحِهم على الإيمان الثّابت، والعبرةُ بعمومِ لفظِ الآيةِ وإن نزلت في خصوصِ فئاتٍ اختُلفَ فيها ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ وإذا قرئ على مسامعهم القرآن أقرُّوا بأنّهم مؤمنونَ به، وفي الآية لفتةٌ خفيّةٌ بأنَّ أصل الدّعوةِ أن تكون بالقرآنِ وإلى القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ آمنّا به لأنّنا نعدُّه حقًّا جاءنا من الله، ويجوزُ أن يكونَ هذا تلميحًا إلى صفاتِ الرّسُول والقرآن الموجودةِ في كُتبهم؛ وعليهِ يؤوّلُ تعبيرُهم بآمنّا دونَ نُؤمنُ، واستعمالُ التّأكيدِ مرّتين تصريحٌ بشرفِهم في الإيمان لَمّا كان يُظنّ في حقّهم الخوفُ والكتمان ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ و إنّا من قبلِ مجيء القرآنِ مذعنونَ لله فما لنا لا نذعنُ له إذا أكرمنا به، ويصحُّ عودُ ضميرِ "قبله" للرّسُول ﷺ باعتبارِ من يتلُوه عليهم، وليس المعنى: كانُوا كفّارًا بل تحوّلُوا من ديانةٍ منسوخةٍ إلى ديانةٍ ثابتةٍ جديدةٍ، والآيةُ من الأدلّةِ على أنّ الإسلام لبّ الدّياناتِ السّابقة، وقولهم "مسلمين" يدل على أن كل الشرائع السابقة جاءت بدين واحد هو الإسلام ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أولئك المؤمنون من أهلِ الكتابِ يعطون بسبب صبرِهم ثوابًا مضاعفًا في

الآخرةِ؛ أي مجازون على الإيمانِ وعلى الثّباتِ فيهِ، أو لأنّهم آمنوا بكتابِهم السّالف ثمّ بالقرآنِ،[١٦] أو بالإيمان السّابقِ بالقرآنِ وبالإيمانِ به بعدَ نزوله، وبناءً على هذهِ التّأويلاتِ فالصّبرُ صبرٌ على الأذى أو على الإيمان، وفي هذا الإتيانِ مجازٌ باعتبارِ تعدّدِ عملِهم المستحقّ لمضاعفةِ الأجرِ وهم في الحقيقةِ يُجازون مرّةً واحدةً، لأنهم يعطون أجر أعمالهم كلها مجتمعا، وأشار إليهم بـ"أولئك" للتنويه بهم وبيان علو قدرهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ومن شأنِهم أيضًا أنّهم يردُّون نكيرَ النّاسِ عليهم بتركِ دينهم بالقولِ الجميلِ والخلقِ الحميد؛ وهذا أوفقُ بالسّياق، ويجوزُ أن يكون إشارةً للإشادةِ بعدمِ إصرارِهم على المعاصي بعد الإشادةِ بإيمانِهم، والدّرءُ: الدّفع والإبعاد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ومن شأنهم بذلُ الخيرِ الذي أكرمهم الله به في شتّى وجوهِه، وذكر الإنفاق مع خصالِهم تلميحٌ إلى رسوخِ إيمانِهم لأنّ المؤمن بشيءٍ يبذُل فيه وُسعه، وقدّم ذكر الرّزقِ اهتمامًا ببيانِ أنّه من اللهِ ليكون للنّفسِ إقبالٌ على استساغةِ الإنفاقِ.

وبدأَ مدحهم بالإيمانِ لأنّه أشرف ما يُكتسبُ ثمّ مدحهم بالإسلامِ والصّبرِ والعفوِ والإنفاقِ وكلُّها من مكارِمِ الخصالِ؛ ثمّ يُتوّجُها بصفةِ علوِّ الهمّةِ التي يكونُ المقبلُ على تغييرِ نفسه بحاجةٍ إليها: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وإذا تلقّوا من غيرهم اعتراضًا خاليا من الفائدةِ صدُّوا عنهُ غيرَ مبالينَ به، واللّغو كلامٌ خلا من فائدةٍ، وقيل: اندرج فيه الفعل أيضا، يعرضُون قائلينَ: ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أهدافُنا في الحياةِ واضحةٌ نتّبعُها فدعونا عليها ولكم ما أنتُم عليهِ، وفي هذا تسطيرٌ لمبدإ راقٍ لاحترام الحرّيّاتِ الفكريّةِ والعقديّةِ بينَ طوائف المجتمعِ الواحدِ؛ وهو شبيهٌ بعدمِ حملِ الآخرين بالقسرِ على الاستقامةِ في: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلامٌ يحلُّ بيننا وبينكم لا جدالَ ولا صراعَ من أجلِ سفاسفِ الأمورِ، والسّلامُ هنا تحيّةُ مفارقةٍ كما أنّه ثمّةَ تحيّة تواصلٍ؛ كأنّهم قالُوا: وإن اختلفنا فإنّا على السّلامِ معكم باقُون ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ فإنّا لا نريدُ أن نكون في مستوى الجاهلينَ، ولا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدين الحق وأهل خلق الجهل الذي

---

[١٦] عن أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثةٌ يُؤتَون أَجرَهم مرّتين: -وذكر منهم- رجلٌ مِن أهل الكتاب آمن بنبيّه، وأَدرك النّبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران...) الحديث. رواهُ مسلم، ك: الإيمان، ب: وجوب الإيمان برسالةِ نبيّنا ﷺ، ر: ١٥٤، (١/١٣٤).

هو ضد الحلم، قال ابن عاشور:(والظاهر أن هذه الكلمة يقولونها بين أنفسهم ولم يجهروا بها لأبي جهل وأصحابه بقرينة قوله (ويدرأون بالحسنة السيئة) وقوله (سلام عليكم)[١٧]

والآيات في عمومها حوت آدابًا يُوصى بها الدّاخلُون في الإسلامِ إذا واجهُوا مشكلاتٍ مع ذويهم، وهي بالأحرى تعكسُ سماحةَ هذا الدّين حيثُ لم يستنكف من إرشادنا إلى الاقتداءِ بأخلاقِ مَن سبقناهم في الإسلامِ أشواطًا.

وبعد بيانِ اهتداءِ الأباعد إلى الإسلامِ يُطرحُ تساؤُلٌ: ما بالُ مَن حول الرّسُول ﷺ لم يفُز بالهدايةِ على تيسّرِ أسبابِها؟ والجواب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ استيقن يا رسُول الله بأنّك غير قادرٍ على هدايةِ من أردت أن يكونَ في صفّكَ و أتباعِك من أقارِبك وغيرِهم، والافتتاح بالتّوكيد حثٌّ له ﷺ للاهتمام بما سيُقالُ، والهدايةُ المنفيّةُ هنا هداية التّوفيق أمَّا هداية التّبيينِ فهو ﷺ جديرٌ بها وذلك معنى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فليس لك ذلك و إنّما الهدايةُ بيدِ الله وحدهُ يوفّقُ إليها من عرفَ منهُ العزم الصّادق، وسنّةُ الله قاضيةٌ بهدايةِ كلّ أحدٍ وضع قدمهُ على طريقِ الهدايةِ على الطّريقةِ التي أرادها الله، وفي الآيةِ ما يُعرف بطباقِ السّلبِ وهو من محسّناتِ النّظم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ والله أدرى بمن سيُقبلُ على الهدايةِ، وفي هذا إيناسٌ لقلبه ﷺ لئلاَّ يغتمّ؛ وإرشادٌ لأن يكون الاجتهادُ في الدّعوةِ لا في الأشخاصِ؛ ومعاتبةٌ له إذا وصل به الحدُّ إلى إضرارِ نفسه بالحزن على مَن أبى دعوته.

ولا نستطيع الجزم بأن الآية نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم – وإن جاءت به بعض الروايات- لأن مسألة إيمان أو كفر أبي طالب محل خلاف بين أهل العلم، والأسلم التوقف عن القطع بشيء

[١٧] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ١٤٦.

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾.

وتتنوّعُ حججُ الكفّارِ ليعترضُوا بأمورٍ خارجةٍ عن فحوى الرّسالةِ وشخصِ الرّسُول ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ زعمَ كفّارُ مكّةَ أنّهم إذا تبعُوك يا مُحمّد سينتفضُ العربُ ضدّهُم لتركِ دينِ آبائهم، والتّخطُّف مبالغةٌ في الخطفِ وهو كنايةٌ عن أثرِ الانتفاضةِ الشّديدةِ، وفاعلُه محذوفٌ لإبداءِ الخوفِ منهُ، ولعلَّ هذهِ الظّاهرة أزمةٌ قائمةٌ اليوم في السّلطاتِ الإسلاميّةِ أمام غيرِها، وهذا يختلف عن ما حكاه الله عن المؤمنين الذينَ نصرُوا الرّسُول ﷺ في مكّةَ على أنّهم قليلٌ مستضعفُون يخافُون أن يتخطّفهم النّاسُ، وعلى الصّعيدِ الخارجيّ يوم الخندقِ إذ تحالفتِ ضدّهم الأحزابُ، وفي "الهدى" و"معكَ" إشارتانِ إلى أنّهم أدركوا بأنَّ دينه ﷺ منهج حياةٍ وليس شعارًا أو انتسابًا فقط؛ ولا بُدَّ أن يكون وفقَ طريقتِه ﷺ، يردُّ الله على زعمهم هذا: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ ألم نهيّئ لهم موطنًا يتمتّعُ بأمنٍ دائمٍ، والاستفهامُ للإنكارِ عليهم وبعثِ الاستغرابِ من حالِهم؛ كيف يكونون بالكفرِ آمنينَ وبعدَ الإيمانِ خائفينَ! وفي ذكرِ "لهم" مع تقديمِه تنويهٌ بمزيّة ومنّةٍ تخصُّهم دون قرى العربِ الأخرى، وسمّيَت البقاعُ المقدّسةُ حرمًا لاختصاصها بتحريمِ أمورٍ فيها، والآمنُ أهل الحرم ونسب ذلك إلى الحرم مجازًا ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حرمٌ تُجلبُ إليه شتّى صنوفِ الخيرات الإلهيّة، و"يُجْبَى" من الجباية وهي الجلب والجمع، وفي التّعبيرِ دقّةٌ لأنّه من المعلومِ أنّ أراضيهم لا تدرُّ بذاتِها لقساوةِ تضاريسها، والثّمراتُ وإن اتّجهت بالأساسِ إلى نتاجِ الغرسِ؛ فتشملُ كلَّ خيرٍ طيّبٍ يصلُ الحرم، و"كلّ" للكثرةِ أو للإشارةِ إلى تمكينِ أهلها من جلبِ كلِّ خيرٍ إلى بلدِهم بما أوتوهُ من الرّفاهِ الماليّ والنّشاطِ الاقتصاديّ ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ خيراتٌ من الله للقائمينَ بتلك البقاع، فهي منّةٌ؛ أضف إليها أنّ

الله أولاها عنايةً خاصّةً؛ فكانَ إعراضُهم بعدَ ذلك منكرًا كبيرًا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غير أنّ كثيرًا من كفّارِ مكّةَ يجهلُون أنّ الله أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ دون كثيرٍ من القرى حولهم، حتّى لم يستيقنُوا بالله فخافُوا تألّب العربِ عليهم إن هم ناصرُوا محمّدًا ﷺ، ومن أدبِ القرآنِ في إطلاقِ الأحكامِ عدم التّعميمِ رغم الظّهورِ الجليّ لضلالِ الفئةِ المقصودةِ بالحُكم.

ولَمّا علمَ أنّ كفر النّعم سبب نزولِ النّقمِ؛ وأنَّ التّفنّن في الاحتجاجِ مدعاة إلى الإصرارِ على الإعراض؛ يأتي إلى تهديد أهلِ مكّةَ بعذابِ الاستئصال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ كثيرةٌ هي القرى التي أهلكها الله لَمّا تجاوزت حدَّها، والآيةُ على تقديرِ: بطرت في معيشتِها الرّغيدةِ، والبطر الطّغيان والتّكبّر، وأسندَ الهلاك إلى القرية مجازًا والمهلَك أهلُها، وعبّر بنونِ العظمةِ إمعانًا في التّخويف ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ وآثارُهم شاهدةٌ بعدَ هلاكِهم، واستعمل اسم الإشارةِ دعوةً لاستحضارِها في الأذهانِ بعد تعهّدِها في الأسفارِ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ في هذا إيماءٌ إلى شدّةِ الخرابِ الذي لحقَ بها حتّى إنّ أهلها استُؤصلوا عن بكرةِ أبيهِم، ولَمّا كانت الحكمةُ تقتضي الإبقاءَ على آثارِهم شاهدًا للاعتبارِ على كونها مساكن عديمةَ شروطِ الحياة رهيبة المقام احترز بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلّا سكنًا قليلاً؛ وهي اللّحظاتُ التي يقيمُ فيها المسافرُون حولَ تلك الآثارِ والشّواهِد ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ولقد كان أمرُها كلّه لله بعد هلاكِهم، والتّعبيرُ بالميراثِ دلَّ على التّركةِ الثّقيلةِ التي خلّفُوها من بعدِهم، وفي الآيةِ تحذيرٌ نفيسٌ لمن وطّدَ نفسهُ على الدّنيا وشهواتِها بأنّ كلّ ما عليها راجعٌ لله، ففي هذا تهديدٌ لا يخفى لسكّانِ مكّةَ وغيرِهم.

وبعد تخويفِ أهلِ مكّةَ بالعذابِ يُبيّنُ رحمته في إرسالِ الرّسلِ قبل التّعذيبِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ولم تجرِ سنّةُ الله بإهلاك أهلِ القرى قبل بعثِ رسولٍ فيهم يُعلّمهم الوحي ويُقيمُ عليهم الحجج، وعنوانُ الرّبوبيّةِ فيهِ إثباتٌ لحكمةِ الله البالغة في مقامِ ذكرِ الإهلاكِ المشعِرِ بنقيض ذلك، وأمُّ الشّيء أصلُه؛ والمراد عاصمة باقي القرى لأنّها وجهة الكلّ لما تتمتّعُ بهِ من حيويّةٍ، فلا يخفى أيُّ أمرٍ يطرأُ بها كما لا ينقطعُ الأجانبُ عنها وبذلك يتأتّى بها تمريرُ الرّسالةِ، والجمعُ بين هذهِ الآية وقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] أنّه قد يتحقّقُ إهلاكٌ قبل مجيء النّذيرِ ولكن لا يكون استئصالاً لبلدةٍ بأكملها ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَالِمُونَ﴾ ولسنا بمهلكينَ قريةً في حالٍ إلاَّ حالَ تحقّقِ إصرارِ أهلِها على الطّغيانِ، والقرى اصطلاحٌ قرآنيٌّ شملَ كلَّ تجمّعٍ سكنيٍّ توفّرت فيه مقوّماتُ الحياة مهما صغُر أو كبُر، ونفيُ الكونِ بمرّتيه"كان،كنا" مع تكريرِ فحوى النّظم تأكيدٌ لعدلِ الله تعالى؛ فمع علمِه بحالِهم لم يُعاجلهم حتّى يقعَ ما يستحقُّ الإهلاك منهم.

وحينَ كانتِ الأموالُ والبنون وشتّى وسائل العيش الرّغيد مانعةً من الإيمان قال تعالى محذّرًا؛ والخطابُ عامٌّ أريدَ به أهل مكّةَ بالأولى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأيُّ رزقٍ أُكرمتُم به فهو من متاعِ الدّنيا وجمالِها الفاني، وعموم "من شيءٍ" أريد به خصوص المتاع النّافع بقرينةِ لفظِ الإتيانِ، وفي الآيةِ التفاتٌ من الغيبةِ إلى الخطابِ لغرضِ الإرشادِ المباشرِ، والمتاع ما تلتمسُ فيه منفعةٌ مؤقّتةٌ، وفي وفرةِ المنافِع وحسنِ المناظِر نشوةُ الحياةِ، ومن بلاغةِ النّظمِ تحقيقُ غرضِ الآية العامّ في تهوينِ لذّةِ الحياةِ بمعانٍ تفصيليّةٍ: بالتّعبيرِ بمفردِ الشّيءِ مع تنكيرِه؛ وبذكرِ المتاعِ والزّينةِ اللّذينِ من شأنهما سرعة الانقضاء؛ وبإضافةِ الحياةِ إلى معنى الدّنوّ؛ وبالمقابلةِ بخيرِ الآخرةِ الباقي ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والذي عند الله من الثّوابِ الأخرويّ أفضل من نعيمِ الدّنيا بصفائه من كلّ منغّصٍ مع بقائهِ بلا انقطاعٍ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتصوّرون بأنَّ الباقي خيرٌ من الفاني حقيقةً تتجسّدُ فيكم، والاستفهامُ للإنكارِ والتّوبيخ، و أنزل هؤلاءِ منزلة من لا يعقلُ لأنَّ النّعيم المعرّض للفناء في أيّ لحظةٍ على هوانه إذا قوبلَ بالنّعيم غير المتناهي في الأفضليّةِ والبقاء صار كلا شيء؛ فمفضّلُ ذاك على هذا كأنّه عديمُ العقلِ.

ولمّا كان من شأنِ أهل الباطلِ التّبجّح أمام أهل الحقّ الضّعفاء بقوّةِ نفوذِهم حتّى تُسوّق صورتُهم بأنّهم أبهجُ منهم وأسعد؛ قال تعالى مسقطًا أقنعتهم: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أيكونُ العبدُ المؤمنُ الذي وعدهُ الله بالثّوابِ الأبديّ في خيرِ نعيمٍ كغيرِه من النّاس؟ والاستفهامُ حثٌّ على التّدبّرِ في الأحوالِ واختيارِ الأسلمِ منها؛ كما يُفهمُ منهُ نفيُ استواءِ الحالين ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ ليجِد ما وعدهُ الله تامًّا غيرَ منقوصٍ، والجملةُ اعتراضيّةٌ سيقت للإعلانِ عن تحقّقِ وعدِ الله، والفاءُ سببيّةٌ بيّنت أنّ ملاقاة الموعود تمّت بسببِ الوعد الصّادق ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أيكونُ ذلكم كالشّقيّ الذي بسطَ الله عليهِ من خيراتِ الدّنيا على ما فيها من الأكدارِ والمتاعب حتّى نسيَ ما خُلق من أجلِه ﴿ثُمَّ هُوَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ متعلّقُ "المحضرينَ" حُذف إيجازًا للعلمِ بهِ من فحوى المقابلةِ بالوعدِ الحسنِ؛ أي: فكان يوم البعثِ ممّن أحضرهُم الله للعذابِ، و"ثمَّ" للتّراخي الرُّتبيّ ،أي والأهم مما سبق إخضارهم للعذاب، فزيادةً على فواتِ النّعيمِ قد وجب له العذاب، وأورد الجملةَ اسميّةً تأكيدًا لمدلُولها، والآية وإن نزلت في خصوصِ أشخاصٍ كأبي جهلٍ فالعبرةُ بعمومِ لفظِها على كلّ من كانت هذهِ حالُه.

الضّالّون وموقفُهم يوم القيامةِ ممّن أضلُّوهم

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)﴾.

وفي سياقِ تهديدِ المشركينَ وبمناسبةِ الانتهاءِ إلى ذكرِ يومِ القيامةِ يبسُط أحوالَهم الأخرويّة تصعيدًا في تهديدِهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ واذكُر أيّها الرّسُول ﷺ للنّاسِ اليوم الذي يُنادي الله الكفّار فيقُول: أرُوني الشّركاء الذين حسبتُموهم يستحقُّون العبادةَ مثلي؛ وإذا زالت عبادةُ الحجرِ اليوم فثمّةَ مظاهر لها نفس حُكمها كالولوعِ الجنونيّ بنجومِ الغناءِ والكرةِ والتّزلّف الأحمق لأهلِ الجاهِ والسّلطةِ إلى درجةِ كونِهم لا يُقدّم على أمرِهم أمرٌ، ونداءُ الله مؤوّلٌ بتفويضِ ملكٍ أوخلقِ صوتٍ يُسمع، والاستفهامُ مسوقٌ للتّوبيخِ واللّومِ؛ لأنّ الله عالمٌ بموضِعِ شركائِهم في المحشرِ ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يُجيبُ الذين عُبِدُوا من دُونِ الله مشيرينَ إلى الذينَ عبدُوهم، وتسميّتُهم بهذا كنايةٌ عن وعيدٍ شديدٍ ينتظرُهم و أنّه قد حُسم أمرُ حسابِهم، والقولُ مجازٌ عنِ الحُكم بدخُولِ النّار، وفيه تفنّنٌ في الاحترازِعنِ المعبُودينَ عن غيرِرغبةٍ كعيسى عليه السلام، وجوّزَبعضٌ أن يكون المعنى: الذينَ وجبَ عليهم الجوابُ؛ فيتعيّنُ أنّهُم سادةُ الإضلالِ ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ يا ربّنا: هؤلاءِ هم الذينَ أفسدنا عقولهم فتقبّلت طاعتنا دون طاعتِك، واختارُوا النّداء وبلفظِ الرّبوبيّةِ تمعّنًا في الاستعطافِ، وأرادُوا بهذا الاعترافَ التّام ظنًّا من أنّه سيُنجيهِم ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا

غَوَيْنَا﴾ أفسدنا عقُولهم كما فسدت عقولنا بغيرِنا؛ والمراد: لم نجبرهُم على طاعتنا؛ وأدقُّ منهُ أنّهم أرادُوا أن يُثبتُوا بأنَّ الإغواء فنٌّ مكتسبٌ عندَهم لعلَّ أوزارهُ تنصَبّ على مَن قبلهُم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ نبرأُ إليكَ يا الله من عبادتِهم لنا، والتّبرّؤُ تفعّلٌ من البراءةِ؛ وإذا تعدّى فعله لمن يُرادُ إثباتُ البراءةِ لأجلِه عُدّيَ بإلى، وحاصلُ المعنى: نشهدُك يا الله ببراءةِ أنفُسنا من إغوائهم بعبادتنا، وبهذا الإعلانِ على رُؤوس الخلائق يُثبتُ الله لنفسِه وحدهُ أحقّيّته للعبادة ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنّ الذينَ أغويناهم لم يخصّونا في الدّنيا بأيّ عِبادةٍ، وفيما سبقَ حاولُوا تأويلَ إغوائهم بأنّهُ ما كانَ ليصلَ إلى حدِّ أمرِ غيرِهم بأن يعبُدوهم؛ ولَمّا ظهرَ أنّ العبادةَ و اقعةٌ عليهم لا محالةَ حاولوا صرفَها إلى مَن سواهُم.

ثمَّ يلتفتُ بالخطابِ إلى الذينَ عبدُوا غيرهُم من دُونِ الله مُمنّيًا إيّاهم بالطّمعِ المنتهي باليأسِ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ استغيثُوا بالذينَ كنتُم في الدّنيا تتّخذُونهم قدوةٌ تُطيعُونهم في كلّ شيءٍ وتُعلّقون فيهم آمالَكم، ويظهرُ من هذا زيادةُ إحباطِ ظُنونِ المشركين بشركائهم وهم يتلقّونَ الدّعوة المحمّديّة، ولشدّةِ إحباطِهم النّفسيّ لم يجدُوا بُدًّا من دعوتِهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فنادوهُم فلم يأبهوا بهم، وظاهرُ السّياقِ أنّها إشارةٌ مؤكّدةٌ لتبرُّئهم من عبادتِهم، أو ذلك لكونِهم في موقفٍ أصعب منهم فهم أضعفُ من أن ينصرُوهم؛ فبهذا تحقّقَ يأسُهم ممّا طمعُوا من خلالِه نجاتَهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وفي تلكَ المو اقِف العصيبةِ رأوا العذاب رأيَ العينِ؛ أو علموا وجوب العذاب عليهم، وتلك الحال التي يحتاجُون فيهِ إلى منقذٍ فلا ينفعُهم الشّركاء، وضميرُ الجمعِ عائدٌ للتّابعينَ والمتبوعينَ معًا، وهنا تلميحٌ لزيادةِ حسرتِهم ممّا يُسفرُ عن تمنّيهم لو كانُوا من أهلِ الهدايةِ، فيُجيبُ الحقُّ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لو كانَ مِن شأنِهم الاهتداء؛ وجواب "لو" محذُوفٌ تقديرُه: لَما اتّبعُوا الضّالّين أو لَما رأوا العذاب، و"كانُوا" على هذا صلة للتّأكيد، ويجوزُ أن تكون "لو" للتّمنّي وقد حُكي حالُهم بصيغةِ الغيبةِ والأصلُ أنّهم هم مَن تمنّى ذلك، وعلى كلٍّ ففيه إغراءٌ لنا بأن نسرعَ إلى ما فاتَ هؤلاءِ فلم يتمكّنُوا من تحصيلِه.

وبعدَ توبيخِ الكفّارِ على الشّركِ يُوبّخُهم على تكذيبِ الرُّسلِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ واذكُر لقومك أيّها الرّسُول اليوم الذي يُخاطبُ الله فيهِ الكفّارَ، وهو نفسُ اليوم الذي يقُول: ادعُوا شركاءكم؛ فأطنب لِما يقتضيه مقام الزّجرِ والتّحذيرِ؛ مصوّرًا طولَ يومِ الحسابِ بتعديدِ مو اقِفه؛ ومبيّنًا هولَه بسُلطةِ

نداءِ الدَّيَّانِ المتكرّرِ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يقُول لهم: ماذا كان جو ابُكم للرّسلِ الذينَ بُعثُوا فيكم، والخطابُ جمعٌ باعتبارِ كلِّ أمّةٍ ورسُولها أو لأنّ كلَّ مكذّبٍ برسُولِه قد كذّب مجموع الرّسلِ لوحدةِ أصولِهم، وقدّم السّؤال عن الإشراكِ على هذا لأهمّيّةِ موضوعِه، ولا بُدّ للأنبياءِ والرُّسلِ مِن خلفاء بعدهم؛ فإجابةُ النّاسِ لهم إجابةٌ للأصلِ الذي تحدّثُوا باسمِه، فهي إشارةٌ غير مباشرةٍ لوجوبِ التزامِ منهجِهم ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فحينَها خرست ألسنتُهم و انفلتت الحجج عنهم، وقد استعار العمى لعدمِ الاهتداء، وضمّن العمى معنى الخفاءِ فعدّي بعلى بدل "عن"، والأنباء جمعُ نبأ وهي أهمُّ الأخبارِ؛ فتعني مقتضى إخبارِهم بالجوابِ الذي لقيه الرّسُل منهم بأنّهم لم يتذكّرُوا منها موقفًا يصلُح للاحتجاجِ بهِ، ومبالغةً في تصويرِ عماهُم قلبَ الأصل فجعل الأنباء هي التي عميت عليهم ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وبسببِ عجزِهم الكلّيّ عن الكلامِ في هولِ الموقِف لم يقووا على مساءلةِ بعضِهم، أو لاكتشافِهم أنّهم في هاويةِ الجهلِ سواءٌ سألوا أو لم يسأل بعضُهم بعضًا، وهنا يقفُ القارئ مستفسرًا: هذا حالُ المصرّينَ فما حال التّائبينَ؟ فيأتي الجوابُ تتميمًا للمقابلة: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وأمّا الصّنفُ الذي فعلَ ما فعلَ من الظّلمِ أو الإشراكِ ثمَّ تابَ موقنًا بالله عاملاً بشرعِه، والآيةُ بيانٌ لقبُولِ توبة المشرِك مع تبيين وجه قبولها؛ فإنَّ المشركينَ ما فتئوا يمتنعون عن قبُولِ الإسلامِ لعلمهم بأنّه يوجبُهم العمل به ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ فأولئك من أهلِ الفلاحِ في الجنّةِ، ونحو هذا الرّجاءِ في القرآنِ محمولٌ على الوعدِ المحقّقِ لأنّ الله أدرى بأحوالِ كلِّ النّاسِ، و إنّما مثّل حالَهم بحالِ من يُرجى له الفلاح تربيةً لنا على عدمِ الجزمِ في مثلِ هذا المقام مع تغليبِ الرّجاءِ لمن كانت هذهِ حاله، ويمكنُ أن يؤوّلَ التّقدير السّابق هنا: أي وأمّا من عصى وأشركَ فأولئك هم الخاسرُون.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾.

وكان من اعتراضِ المشركينَ على الدّعوةِ بأنّها لم تكن في أخيارِهم وأشرافِهم فيردُّ الله عليهم مخاطبًا رسُوله ﷺ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وربّكَ يا محمّد ﷺ هو وحدهُ المتصرّفُ بما أرادَ في الخلقِ زمانًا ومكانًا، وقدّمَ ما حقُّه أن يتأخّرَ "ربك" ليقصُرَ الإخبار على ذاته وحدهُ، وأوردَ هذا توطئةً لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ وبناءً على أنّه الخالق فهو الذي يختارُ مَن يصلُح لحملِ الرّسالة، والمضارع في الموضعينِ لبيانِ الشّأنِ المستمرّ، والآية جرت مجرى المثلِ بعمومِ معناها ولكنَّ سياقَ السّورةِ يحسُن معه أن تُفسّرَ بهذَا ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ولا يملكُ قومك أيّ خيارٍ في هذا الشّأنِ؛ وفي هذا مقابلةٌ للملك المطلق في "ما يشاء"؛ وتأكيدٌ للقصرِ في "ويختارُ"، وفي نفيِ الكونِ تقويةٌ للنّفي فهو أبلغُ من: ليس لهم الخيرةُ، والخيرة اسمُ مصدرٍ من الاختيار؛ وقيل: لا نظير من وزنه إلاّ "الطِّيَرَة" اسم مصدرِ التّطيّرِ، وجوّزَ عدُّ "ما" موصولةً فيخلُص المعنى: ويختارُ الذي لهم فيه الخير ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تقدّس الله عن شركِ المشركينَ، وأظهرَ لفظَ الجلالةِ بعدَ ما مرَّ من لفظِ الرّبوبيّةِ بيانًا بأنّه مستحقٌّ للتّنزيهِ في ذاتِه لعلوِّ شأنِه ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتعاظم الله عن كلِّ مشاركةٍ فيما تفرّدَ به من الخلقِ والأمرِ، وتضمّنَ هذا التّنزيهُ زجرًا لمن تدخّلَ في صلاحياتِ الخالقِ فصارَ يحتجُّ على رُسله؛ كما نبّهَ بوصفِ الإشراكِ إلى أنّه عملٌ يصنّفُ في خانةِ أعظمِ الذّنوبِ.

وكان من أثرِ محاججةِ الكفّارِ للرّسُول ﷺ إضمارُ العداوةِ لهُ والتّخطيط للإطاحةِ به في السّر؛ فجاءَ خبرُ السّماءِ مسلّيًا له ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وربّك مطّلعٌ على جميع ما

يُخفونه كاطّلاعه على ما يُظهرُونه سواء، والتّعبيرُ بعنوانِ الرّبوبيّةِ مع تكريرِه فيه تلطّفٌ بحالِه ﷺ؛ ثمّ في إضافتِه إلى ضميرِ الرّسُول إشارةٌ إلى عنايتِه الخاصّةِ بشخصه، و"تُكنُّ" من أكننتُ الشّيء إذا سترتُه مع حفظِه، وقُدِّم على الإعلانِ لأنّ الإعلان يصدُرعنه، واهتمامًا بتصويرِ سوئهم ذكرَمحلّهُ"صدورهم" ولم يقل: يكنّونَ، وتضمّن هذا الإيجازعلّة لاختيارالله للصّلحاء و إيماءً إلى الوعدِ والوعيدِ ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ والموصوف بما سبقَ من صفاتِ الكمالِ هو الإله الواحدُ، وتعريفُ الطّرفينِ مؤذنٌ بالقصرِ، وفي هذا إثبات الكمالاتِ السّابقةِ لله؛ وربّما اعترفَ المشركونَ بها ولكن جعلُوا له شركاءَ فأكّدَ تنزيهَهُ بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو المستحقُّ للعبادةِ وحده مهما اتّخذ المشركون له من الأنداد ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ والله وحدهُ المستحقُّ للثّناءِ الكاملِ في الدّنيا والآخرةِ بما يُكرمُ به من النّعمِ والثّوابِ؛ ومن قولِ أهلِ الجنّة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزّمر: ٧٤]، ويجوزأن يرادَ بهذا الحثُّ على حمدِه؛ أو التّنبيه على أنَّ المشركين لا يقوون على حمدِ آلهتهم حيثُ لا يجدُون فيها ما يُحمد، ولامُ "له" للملكيّةِ؛ وتقديمُه على متعلّقه أفاد الحصر، والتّعريف في "الحمد" للاستغراق أي كلّ الحمد، وتحقيقًا للطّباقِ في النّظمِ عبّرَبالأولى عنِ الدّنيا ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ ولله وحدهُ السُّلطة المطلقةُ مهما ادّعى البشرُ الاعتلاءَ، والمتعلّقُ دلَّ عليهِ السّياق أي في الدّارين، وفي هذا نفس النّكتة في "له الحمدُ" ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكلُّ البشرِ عائدونَ إليهِ لا محالةَ للحسابِ، وحسُن ختمُ الثّناءِ بهذا لأنّهُ كالخلاصةِ لما قبله؛- فالذي إليهِ المرجعُ وحدهُ لمَ لا يكونُ الإذعانُ والحمدُ والحُكم له وحدهُ؟

وينوّعُ في البيانِ فينتقلُ من بيانِ صفاتِه الذّاتية إلى بديعِ ما يخلُق ممّا يراهُ كلُّ إنسانٍ على وجهِ المعمورةِ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أتصوّرتُم لو قدّرَالله بأن يمتدَّ اللّيلُ متّصلاً فلا يعقُبه نهارٌ؟ والخطابُ لمشركي مكّةَ بالأولى ويعمُّ غيرهُم، والرّؤيةُ علميّةٌ، وهذا الاستفهامُ ونظيرُه الآتي لتقرير إمكانِ الرّؤيةِ وللحثِّ عليها، واختارَ "إن" الشّكّيّة لأنَّ الحدث افتراضيٌّ، والسّرمدُ هو الطّويل الدّائم المتّصل ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي امتدادًا شاملاً لأزمنةِ الدّنيا، فليس في يومِ القيامةِ عودٌ لذلك النّظام، وفي اختيارِهذا الدّليلِ إدماجٌ للاستدلالِ بوحدانيّةِ الله حيثُ يُبيّنُ أنَّ كل ما على الوجودِ مخلوقٌ محدثٌ لظهورِه واختفائِه؛ إمّا لذاته كالشّمس أو بسببٍ و اقعٍ عليه كسائرِ الموجوداتِ ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ هل ثمّةَ إلهٌ غير الله يقدرُ على الإتيانِ بضوءٍ يردُّ به ظلماتِ اللّيلِ؟

والاستفهامُ هنا وفي نظيرِه الآتي للتّبكيتِ والإعجاز، والإتيانُ مجازٌعن الإيجاد، وإسنادُه في الموضعينِ إلى المخاطبينَ إشعارٌبالمنّةِ المحفّزةِ لهم على الإيمان، ولم يقل: يأتيكم بنهارٍاهتمامًا بأصلِ تكوّنِ النّهارِ وهو الشّمسُ، ودقّق فلم يُعبّر بالشّمسِ و إنما بضيائها إظهارًا لمنفعتِها العظيمةِ وهي الأشعّة، ثمَّ إنّهُ أفردَها فعبّرَبالضّياء مبالغةً في الإعجازِبأنَّ الله أتى بضوءٍ واحدٍ أضاءَ معظمَ الأرضِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أنُخاطبُكم فلا تسمعُوا سماع تعقّلٍ وتذكّرٍ؟ والاستفهامُ للإنكارِ، و أنزلهُم منزلةَ من لا يسمعُ لأنَّ عدم خضوعِهم مع هذا الإعجازِالمبهرِلا يُفهمُ منه إلاَّ عدم سماعِهم له.

ولو حدثت تلك الظّاهرةُ العجيبةُ للزمَ أنَّ الأرضَ ستتوقّفُ عن الدّورانِ حولَ نفسِها فيحصُل اللّيلُ في نصفِها والنّهارُفي النّصفِ الآخرِ، تو افُقًا مع النّظام الشّمسيّ[١٨] أتمَّ فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ جدّدهُ تأكيدًا وتحسينًا للمقابلةِ، وفي "قل" اهتمامٌ بتلقينِ المقول الذي قد تخفى فائدتُه ابتداءً، واهتمَّ بذكرِ الضدِّ لأنَّ الأشياء بأضدادِها تنجلي ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَسَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إن قدّرالله بأن يجعل النّهار ممتدًّا إلى يومِ القيامةِ فلا يعقُبُه ليلٌ، وذلك بأن يكونَ في كلِّ جزءٍ من نصفِ الكرةِ الأرضيّةِ ساعةٌ ثابتةٌ من النّهارِ من أوّله أو وسطِه أو آخرِه، وعبّر بعليكم في الموضعينِ دون "لكم" ليتناسبَ مع الحُكم بما يشقُّ ولأنّه مظهرٌعلويٌّ فوقنا، وقدّمَ اللّيل لأنّه أسبق ولأنّ دوامه أشقُّ ولأنَّ الظّلمة هي الأصل ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُاللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ هل ثمّةَ إلهٌ غيرالله يقوى على أن يأتيكم بليلٍ ترتاحُون فيه؟ وفي ذكرِالسّكنِ تفنّنٌ في إدماجِ الامتنانِ المشوّقِ للإيمان؛ وبراعةٌ في ضمِّ نعمٍ كثيرةٍ من الدّفء والأمنِ والأنسِ وغيرِها في وصفٍ واحدٍ، ولمّا كان إبداعُ الشّيء مع ضدِّه وتكريرُ وقوعه بانتظامٍ مظهرًا رفيعًا للقدرةِ قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنعرضُ لكم الدّلائلَ جليّةً فلا تُبصرُوها إبصار تذكّرٍ؟ واستعملَ الإبصارَهنا لأنّه بالنّهارأوفق والسّماع هنالك لأنّهُ مع اللّيلِ أنسب ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَلِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ومن جملةِ رحمةِ الله للنّاس أن جعلَ من أجلِهم اللّيلَ للرّاحةِ ويعقُبه النّهار للسّعي والاكتسابِ، وقدّم "من رحمته" اهتمامًا بقيمةِ النّعمة، وفي الآية تقديرُكلمة"فيه"، فيكون الكلام: ولتبتغوا من فضلِه فيه؛ فحذف إيجازًا لمّا فُهم المعنى من المقابلةِ،

[١٨] ولْشدُّ منهُ افتراضًا أن يكونَ خلق الأرض بعيدةً عن النّظام الشّمسيِّ، أو أنّه يأخُذ الشّمسَ التي عليها مدارُ اللّيلِ والنّهارِ كلّيّةً، وفي جانبِ النّهارِ ألّا يخلُقَ الأرض كرويّةً ويجعلُها مسطّحة.

والابتغاءُ من فضلِ الله كنايةٌ عن العمل، وفي الآيةِ ما يُعرفُ عند أهلِ البديعِ باللّفِ والنّشرِ؛ وهو هنا من النّوعِ المرتّبِ لأنَّ المنشوريعودُ إلى المجموعِ بالتّرتيبِ، إذا ذكر الليل والنهار مرتبين ثم ذكر منفعة كلٍ منهما مرتبة ، وتسميّةُ هذا الجعلِ رحمةً يقتضي منّا الإذعان لما جُبلت عليهِ طبيعتُنا فلا نُرهقُ أعصابنا ليلاً كما لا نعيش نهارنا خمولًا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وتلكَ الرّحمةُ كانت من أجلِ أن يتحقّقَ الشّكرُ منكم ويزول كفران النّعم، و"لعلّكم" رجاءٌ أو تعليلٌ، والشّكر عائدٌ إلى مجموعِ النّعمِ السّابقةِ ومن أبرزها نعمةُ التّنوّع والتّجديد في النّعم.

وبعدَ هذا الاستطرادِ في الثّناءِ يعودُ إلى محاججةِ المشركينَ بفسادِ عقيدتِهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ نفسُ نداءِ التّأييس السّالفِ على رُؤوسِ الخلائق؛ سبقَ تبيينًا لتبرُّؤ شركائهم منهم ثمّ جدّدهُ ليقيمَ شهادةَ الأشهادِ عليهم: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وأخذنا من كلِّ أمّةٍ من الأممِ واحدًا منهم ليشهدَ على موقِفِهم الدّنيويّ مع الرّسالةِ، والنّزعُ مجازٌ في الإخراجِ؛ ووردَ بصيغةِ الماضي لإفادةِ التّحقّق؛ والتّعبيرُ بنونِ العظمةِ"نزعنا" بعد الالتفاتِ عنِ الغيبةِ"يناديهم" إلى الخطاب"نزعنا" اهتمامٌ بتصويرِ المشهد، والشّهيدُ من بُعث إليهم بالرّسالةِ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: ٤١] فحاصلُ السّياقِ أنّهم حينَ سئلُوا: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وعميت عليهم الأنباءُ فوّض الله شهداءهُ ليشهدُوا بما كانَ منهم، وحينها يقُول الله لهم: إعذارًا وتعجيزًا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أخرجوا ما لديكم من الاحتجاجِ بأنّكم مظلومونَ باستحقاقِ العذابِ، أو احتجُّوا على أنّ دينكم الذي اتّبعتُموهُ كان صحيحًا ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ فاستيقنُوا أنَّ الله صاحبُ الحقِّ المطلقِ في الحُكم وهو المستحقُّ للعبادةِ وحدهُ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضاعَ عنهم كلّ ما توهّموهُ سبيلاً للشّفاعةِ أو النّجاةِ، صوّرَ عقائدهم الضّالة كدليلٍ يسيرُون خلفه وفجأةً اختفى عنهم فبقوا ضائعينَ.

قصّةُ قارُون وفتنةُ المالِ وصنفا النّاسِ تجاهها

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾.

لَمّا سلفَت في السّورةِ الإشارةُ إلى هوانِ متاعِ الدّنيا الفاني والتّحذير من أن يكون سببًا للصّدِ عن الحقّ يذكر قصّةً و اقعيّةً من بابِ ضربِ المثال بعد طرحِ القاعدةِ ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ إنَّ "قارون" كان ممّن بُعث فيهم موسى عليه السلام؛ وقيل: من عشيرته وقرابته، واسم "قارون" معرّبٌ من العبرانيّة وليس مشتقًّا من مادّةِ "قرنَ"، واستعمل التّأكيد ابتداءً ليُبيّن أنّ قارُون بلغ ما بلغه على قربِه من النّبيّ وتعاليمِ شريعتِه؛ وليضربهُ مثلا للذينِ جاورُوا محمّدًا ﷺ فاعترضوا على دعوته مغترّينَ بمكانتِهم ونفوذِهم ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ وقد تمكّن من البغيِ على قومه، والفاءُ لمجرّدِ التّرتيبِ؛ أو سببيّةٌ أي بسببِ أنّه منهم، والبغيُ هنا مستعملٌ في حبِّ التّسلّطِ، ووجهُه هو عينُ ما تُعانيهِ السّلطات القوميّةُ دائمًا حيثُ يترعرعُ الفردُ في قومه كغيرِه من الأفرادِ حتّى إذا تميّزَ عليهم في جاهٍ أو مالٍ فرض لنفسِه مكانةً وسُلطةً؛ كأبي جهلٍ في مكّةَ، فهو إذا استهلالٌ لطيفٌ لكشفِ شخصيّةِ المتحدّث عنه ﴿وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ ولقد أعطيناهُ من الأموالِ فيضًا كبيرًا، والكنزُ يُطلقُ على المالِ العظيمِ المختزنِ، وتقريبًا لصورتِها قال: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أموالٌ مفاتحُ خزائنها قد ثقل حملُها على الجماعة القويّة، والمفاتِح جمعُ مِفتحٍ وهو آلة الفتحِ؛ وليس في القرآنِ إلاَّ زنتُه نحو: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النّور: ٦١] وهو مرادف مفتاحٍ وجمعه مفاتيح، و"تنوءُ" من النّوء وهو الثّقلِ، والعُصبةُ كالعصابة وهي الجماعةُ القويّة سمّيت بذلك لأنَّ بعضها يتعصّبُ للآخرِ؛ ولا عددَ يضبطُها، وكثرةُ المفاتِح دلّ على تنوّعِ الثّروة وهذا أظهر، ويُحتملُ أنّه عدّدَ مغاليقَها حرصًا على تأمينِها، أو لأنّهُ فرّقها

خوفًا من العاهةِ تأتي عليها جميعًا.[19] ولذمّه قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ "إذ" ظرفٌ لبغى عليهم، أو قبله تقديرُ: ما أحقرهُ؛ أو واذكريا مُحمّد ﷺ لقومك موقفَ قومِ قارُون الصّلحاء حينَ أوصوهُ بألّا يطغى بكنوزِه، والفرحُ التّعلّقُ بالشّيء رغبةً فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ لأنَّ الله لا يُحبُّ أهل البطرِ والطّغيان، وأُكّد الكلام لأنّ الموجّه إليهِ من شأنِه الإنكار، وسياقاتُ القرآنِ تذمُّ كلَّ فرحٍ كان من أجلِ الدّنيا وتُشيدُ بالفرحِ من أجلِ الطّاعةِ والآخرةِ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وبينَ "لا تفرح والفرحين" جناس اشتقاقٍ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ واشترِ بالمالِ الذي بينَ يديك ثوابَ الآخرةِ، و"في" بمعنى الباء، ونهوهُ أوّلاً عن الفرحِ بالمالِ وهي تخليةٌ ثمَّ أوصوهُ بابتغاءِ الجنّةِ به وهي تحليةٌ، ونُسبَ الإتيانُ هنا وفيما سبقَ لله تنبيهًا إلى أنّ الإنسان مهما حصّل فهو مستخلفٌ فيما أوتيهُ ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ دون أن تُهمل حظَّك من نعيمِ الدّنيا فلكَ حقٌّ فيه، والنّهيُ مستعملٌ في معنى الإباحةِ، وإضافة النّصيبِ إليهِ تنويهٌ بأحقّيّتِه فيه، فبعدَ أن رسّخُوا فيه ابتغاء الآخرةِ بالمالِ رسّخُوا إلى جانبِ ذلك مبدأَ الاعتدالِ في الإنفاق إيماءً إلى أنَّه لا ندعوكَ إلى نقيضِ ما أنت عليهِ لتصيرَ زاهدًا فقيرًا، وقيل: المعنى ولا تنسَ أنَّ ثوابَك الأخرويّ يجبُ له العمل من الدّنيا[20] والأوّل أشهر ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وجُد على الغيرِ كما جادَ الله عليك، وحُذف مفعول "أحسن" ليشمل كلَّ وجوه الإحسانِ الممكنة في الإنسانِ وغيرِه، وكافُ التّشبيهِ تضمّنت معنى التّعليل فهي بمنزلة "لأجلِ"، وهذه قاعدةٌ نفيسةٌ عامّةٌ في الدّعوة ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تسع في الأرضِ مفسدًا، والتّعقيبُ بهذا تنبيهٌ إلى جعل الإحسان منهجَ حياةٍ لا حظَّ للسّوءِ فيه، وقيدُ "في الأرض" إشعارٌ بمحلِّ الحياةِ والجمالِ والاستقرار وكأنّهم قالوا: لا تُفسد في الموضِع الذي ينبغي أن يُعمرَ بالخيرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ذلك لأنّ الله لا يرضى عن أهلِ الفسادِ، ونهوهُ عنِ الإفسادِ بعدَ

---

[19] وكثرت التّأويلاتُ في الآية وأظهرُها: أنَّ الذي شقَّ على اللّجنة الماليّة الخبيرة هو نظام حفظ الأموال المتعلّقة أساسًا بالخزائن ومفاتيحها وربّما كلفت المفاتيحُ على كثرتها خفيفةً؛ وهذا على تصوّر قارُون رجل أعمال يُتاجر بأمواله لا على كونه وجدَ كنزًا فخبّأه، وقد أبطلَ القطبُ أطفيّش في تفسيره للآية المعنى المشاع ورأى بأنَّ مَفاتح جمعُ مَفتحٍ بفتح الميم وهو موضعُ الفتح أي بما يُفيدُ أنَّ الكنوز هي التي ثقُلت عليهم. يُنظر: محمّد بن يُوسف أطفيّش، تيسير التّفسير، ج١١، ص٢٥.

[20] ومن رأى هذا المعنى فقد أكّده بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٢] أي أنّ لهم ثوابًا في الآخرة بما كسبُوا في الدّنيا من الأعمال.

النّهي عن الفرحِ المذموم لأنّه نتيجتُه، والكلامُ إلى هنا للقومِ ولعلّه من وصايا موسى عليه السلام لهم، والآية نموذجٌ لأدبياتِ دعوةِ ذوي النّفوذِ والمكانةِ وفيها النّهيُ الصّريح عن البطرِ والتّذكيرُ باللهِ واليومِ الآخرِ دون هدمِ لذّةِ الدّنيا من القلبِ وذلك بتغيير الأسلوبِ وتأكيد المعاني ومخاطبة العقلِ؛ كما أنّ عموم الآية نموذجٌ للنّصحِ والذّكرى في الحياةِ المادّيّة فلا فصلَ بين الشّريعةِ والحياةِ.

وما كانَ من قارُون إلاّ أن ردَّ على من نصحهُ بقولِه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لم أُعط هذا المال إلاَّ بالحذاقةِ التي أمتلكُها، والمقامُ يقتضي أنَّ قارُون جاحدٌ بأنَّ الإتيان من الله وإن راودهُ في قلبِه، كما يقتضي أنَّ المرادَ بالعلمِ فنون الكسبِ، واحترزَبقولِه "عندي" مِن سؤال: ومن أعطاكَ ذلك العلم؟ والإيجازُفي حكايةِ الرّدِّ براعةٌ في تصويرِ نفسيّةِ ذوي المكانةِ عند مقابلتِهم للآخرين؛ وتصويرِ من هو مفلس الحجة فهو يردُّ بالإجمالِ؛ ومن جهةٍ أخرى تكشّف السّبب الرّئيسي لكلِّ ما يأتيه قارُون وهو اعتقاده الفاسد أنّه حرٌّفي مالِه ما دام أنّه حصّلهُ بذاتِه.

يعقّبُ الله على زعم قارُون ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ألم يعرف قارُون بأنّ الله قد استأصل أُمَما من قبلِه قد عرفوا بالقوّةِ والعدد، والاستفهامُ تعجيبٌ من إنكارِهِ ما ثبتَ لديهِ من أخبارِ السّابقينَ؛ ولومٌ لعدمِ قياسِ حالِه بحالِ من سبقَ، واستُدلَّ من هذا على بُطلانِ ما رُوي من المبالغاتِ في وصفِ كنوزِقارُون بأنّه لو كانت حقيقةً لما فاقه أحدٌ ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الجملةُ اعتراضيّة، والسّؤالُ دنيويٌّ على ظاهرِ السّياقِ، وهو بمعنى نفي طلبِ العلم بأفعالِهم التي هم بها خبراء لأنَّ الله أعلم بها، وهي كنايةٌ عن الوعيدِ الذي قد يُباغتهم.

وبعدَ بيانِ مقولةِ قارُون السّلبيّةِ بيّن موقفهُ الفعليّ من النّصيحةِ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فظهرَ قارُون على قومِه في أُبّهته المعهودةِ، والفاءُ لمجرّدِ التّرتيبِ؛ أو للسّببيّةِ أي بسببِ ما تلقّاهُ من النّصيحةِ زادَ تكبُّرًا فخرجَ، واستُعملت "على" مناسبةً لمقامِ الاستعلاءِ، ومن مظاهرِ بغيِ قارُون السّالفِ فتنُه لغيرِه: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فانبهرَ بقارُون الذينَ أهوتهم الملذات الدّنيويّة، ووصفُوا بهذا على سبيلِ الذّمّ لأنّهم نظرُوا إلى ظاهرِ الملذّاتِ وهو حبٌّ أعمى لما من شأنِه أن يُفسد صاحبهُ، وكان من أثرِ حبّهم للدّنيا عدمُ الرّضا بما قسمَ الله؛ فبدلَ أن يتمنّوا حلالا بقدرٍ لا يكونُ

سببًا للبطرِ قالُوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ نتمنّى أن يكونَ لنا من الثّروةِ مثل الذي حظيَ به قارُون، وظاهرُ النّظمِ يوحي بأنّهم شركاءُ في عقيدةِ قارُون في جحودِ مصدرِ الإتيانِ بأنّه من الله ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إنّه محظوظٌ جدًّا بهذهِ الثّروةِ، وأكّدُوا المعنى ليبيّنوا أنّه قد أُكرم بالمالِ حقًّا ولا نقاش في أنّ المال منفعةٌ محضةٌ.

ويردُّ أهلُ الصّلاحِ على مقولةِ القوم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وفي هذا مقابلةٌ للإتيانِ السّابِق من الكنوزِ وحبِّ الدّنيا؛ كما فيه مقابلة لعلمِ قارُون الذي أوتيهُ فكان سببًا لفسادِه؛ إشارةً لنا لنقيس الأحوال ونُقارنها، وأصحابُ العلم في أكثرِ مواضع القرآنِ منطبقٌ على العارفينَ بالله وسننِه ﴿وَيْلَكُمْ﴾مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: احذروا هلاككم؛ والويلُ هلاكٌ، وهو لفظٌ مستعملٌ في التّعجّبِ الشّديدِ إيجازًا في إيصالِ رسالةِ تحذيرٍ سريعةٍ بدل قولهم: كفُّوا عن اعتقادِ ذلك ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ جزاءُ الله الأخرويّ يُعدُّ أفضل من كلِّ نعيمٍ دنيويٍّ زائلٍ عندَ من هذّبَ فكرهُ بالإيمانِ وأشغلَ نفسهُ بمكارمِ الأعمال، ولم ينهوهم عن طلبِ المتاعِ المباحِ ولكن نهوهُم عن الولعِ بالأثرياء، وقُدّم "ثوابُ الله" ليكون المعنى المراد إلى آذانِهم أسبق؛ وهو إبطال اعتقادهم أنّ الحظَّ العظيم ذهب به الأثرياء، ولم يقولوا: خيرٌلكم ليُبيّنوا لهم أبرزَزينةٍ ينبغي أن يتحلّوا بها ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ولا يُعطى تلك المرتبة إلاّ أهل الصّبرِ، وهذهِ مصارحةٌ لِلقومِ بالمشقّةِ التي قد يجدُونها في طريقِ الالتزامِ حتّى إذا صادفُوها استسهلُوها؛ أو هم ضمنَ المؤمنينَ فصارحُوهم بما يجدُونه بأنّهُ أمرٌ طبيعيٌّ ليزدادُوا صبرًا، والجملة من كلامِ الذين أوتوا العلم استئنافًا ويجوزُكونها اعتراضيّة من كلامِ الله لنا.

نهايةُ قارُون الوخيمة والعبرالمستفادةُ من قصّتِه

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾.

ثمَّ يأتي إلى بيانِ عاقبةِ قارُون الوخيمة لَمّا أبى النّصيحة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ ففتحنا الأرض التي طغا فوقها فابتلعتهُ مع قصرِه الذي شيّده ليحفظه، والباءُ للمصاحبةِ وتكرّرت إمعانًا في تصويرِ الخسف، والخسفُ انهدامُ ظاهرٍ من الأرضِ إلى باطِنها، والفاءُ دلّت على التّعجيلِ بأخذ قارُون، واستعمل ضمير العظمة تنويهًا بقدرته تعالى، وهو أخذٌ من حيثُ لم يحتسب؛ فلا شكَّ أنّهُ قد حمى دارهُ وكنوزهُ من كلّ جانبٍ فجاءت المصيبةُ من تحتِه؛ كما أنّه خسفٌ خارقٌ إذ أخذَ أفرادًا معيّنينَ ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ﴾ ولم يجد قارُون في لحظةِ هلاكِه أيَّ أنصارٍ يردُّون عنه عذابَ الله، وفئةٌ اشتُقَّ من الفيء وهو الرّجوع؛ لرجوعِ الجماعةِ حال الشّدّةِ إلى بعضٍ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لم يجد في ذلك الحينِ غيرالله؛ ولكنّها لحظةُ عذابٍ لا يقبلُ توبته فيها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ ولم يملك قدرةً ذاتيةً ليدفعَ بها النّقمةَ الحاصلةَ عليهِ، وتكريرُنفيِ الكونِ وقولهِ "من المنتصرينَ" دون منتصرًا؛ تأكيدٌ لنفيِ النّصرة.

ثمَّ يحكي توجّع المولعينَ بقارون بعد سماعِهم بخبرِالخسفِ ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ وصارَالذينَ كانُوا بالأمسِ القريبِ يطمحُون أن تكون لهم منزلة قارون، و"أصبح" بمعنى صارَ؛ ويجوزُ أن يكونَ من دخولِ الصّباحِ فيكونَ خسفًا ليليًّا وهو أشدُّ، ومكان قارُون شمل الجاهَ المعنويّ والمرتبة المادّية، والأمس مجازٌعن الماضي القريب ﴿يَقُولُونَ﴾ وفي هذا رمزٌللنّدمِ الجماعيّ ورجوعٌ عمّا اعتقدُوه من باطلٍ، وهي لحظاتٌ نفسيةٌ يُكرمُ بها الإنسانُ ليدّكر، وقد عبّربالمضارع استحضارًا لذلك الموقف ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ عجبًا كيفَ لا تدُوم الأحوالُ الطّيّبةُ يغدقُ الله حينًا ثمَّ يسلبُ النّعمة حينًا آخرَ! و"ويكأنَّ" تركيبٌ من "وَيْ" اسمُ فعلٍ أمرٍ بمعنى: اعجبوا؛ من الخسفِ أو من تمنّي الباطل؛ و"كأنَّ" إحدى أخواتِ "إنَّ" خرجت من معنى التّشبيه إلى التّحقيق، والبسطُ مستعارٌللإغداقِ، ويقدِرمن القَدْرِوهو التّضييق، وبينَ اللّفظتين طباقٌ، وفي "من عباده" تنويهٌ بعلّةِ التّصرّفِ الحرِّالمطلق بأنّه تصرّف المالكِ في المملوك ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ لولا أنَّ الله أكرمنا بالابتعاد عن ثراءِ قارُون المفضي إلى البغيِ والتّكبّرِ لحدث لنا ما حدث به من الخسفِ، ويجوزعودُ المنّ إلى إمهالِهم وعدمِ مؤاخذتهم على مقولتِهم أو إلى أمورٍأخرى قد تستخلصُ

من المقامِ ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ عجبًا لقدرةِ الله كيفَ أوقع الكافرينَ بنعمِه في الخسران، وفي هذا إيماءٌ إلى قدرةِ الله في إهلاكِ الطّاغينَ.

وتنتهي قصّةُ قارُون ويلتفتُ إلى العبرة العامّة منها ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الإشارةُ للتّعظيم لحاضرٍ في الذّهن وهو مصيرُ السّعداءِ مقابلةً بمصيرِ قارُون الشّقيّ، أو هي إشارةٌ إلى غيرِ سابقٍ ولا حاضرٍ تفنّنًا في التّشويقِ لما سيذكُره؛ وهو الجنّةُ؛ وعبّر عنها بالدّارِ مجازًا عن أهمّ النّعمِ فيها وهي الإقامة الكريمة، والآخرة وصفٌ كنائيٌّ عن الدّوامِ، وهي مقابلة لدار قارون التي خسفت معه ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ نورثُ تلك الجنّة لعبادنا الذين لا يُريدُون الطّغيان والإفساد في الأرض، وجعلُها لأجلِهم فيهِ إشارةٌ إلى إكرامِهم البالغ، ووصفُهم بتركِ إرادةِ العلوّ والفسادِ مرتبةٌ أشرفُ؛ لأنَّ مريدَ الشّيءِ في حُكمِ من وقعَ فيهِ حيثُ يكونُ راضيًا به، والآيةُ متّجهةٌ إلى الأتباعِ بالأولى لأنَّ علوَّ قارُون مثلاً ما كان ليتحقّق لولا اعتزازُ الغوغاءِ به ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبةُ وصفٌ للحالِ القادمة؛ وشاعَ إطلاقُها على حالِ الخيرِ، وهي هنا الجنّة التي أُعدّت للخائفينَ من الله، وتضمّنَ هذا التّذييل حثًّا لنا لئلاَّ نتعالى في الأرض وأن نخافَ الله.

مصيرُ النّاسِ يوم القيامةِ ووصايا شاملة لتثبيته ﷺ على دعوته

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾.

وبذكر الدّار الآخرة وعاقبة المتّقينَ اقتضى المقامُ تبيينَ قانونِ الله في مجازاةِ البشرِ فيقُول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ مَن قَدم إلى الله يوم القيامةِ تقيًّا تائبًا من كلِّ ذنبٍ فله ثوابٌ مضاعفٌ على أعمالِه فضلاً من الله عليه؛ ودرجات تلكَ الخيريّة في علمِ الله خفيَت لتكون مضمار تنافسٍ، وكعادةِ القرآنِ في قرنِ التّرغيبِ بالتّرهيبِ قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ والذي بُعث يوم القيامةِ غيرَ تائبٍ قد بقيَ على ذنوبِه مصرًّا، والحسنةُ والسّيّئةُ في الآيةِ للجنس؛ فليس المرادُ أن يأتي المكلّف بحسناتٍ

مع سيّئاتٍ فتُضاعفُ له تلك ولا تُضاعفُ هذه فربّما ترجّح جانبُ الحسناتِ لديهِ بالميزانِ فيكونُ ناجيًا؛ لأنَّهما لا يُجمعانِ أبدًا لعاصٍ لسنّة إحباطِ الحسناتِ كما لا يُجمعانِ أبدًا لتائبٍ لسنّةِ تكفيرِ السّيّئاتِ ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فمن رحمةِ الله ألاَّ يُعاقبَ المذنبينَ إلاَّ بقدرِ عصيانِهم وإصرارِهم؛ وذلك تقديرٌ نفوّضُه لله موقنين بعدلِه؛ وهو قدرٌ في درجةِ العذابِ لا في الخلود، لأن الخلود يشمل الجميع، ولم يقل: فلا يُجازونَ؛ وأظهر وصفَ المذنبينَ وبصيغةِ الجمعِ"عملوا السيئات" تنبيهًا إلى كثرتِهم؛ وإلى سببِ استحقاقِهم العذابِ وهو عملُهم للسّيّئاتِ؛ وليلقيَ في الآذانِ هجانةَ السّيّئات وخطرها لتُجتنب.

وتجويدًا لخاتمةِ السّورةِ يجمعُ خلاصةَ المعاني التي تضمّنتها ملتفتًا بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ إنّ الله الذي ألزمَ عليكَ التمسك بتعاليم القرآن بعد أن أوحاهُ إليك، وقيل: فرض بمعنى: قطعَ له كذا وخصّهُ به؛ فهو دليلُ كرامةٍ توطئةً لما سيخبرُ عنه، و افتتاح الكلام بالتّأكيد جلبٌ للأذهانِ نحو ما سيُقال ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ سيرجعُك إلى مكّةَ بعد أن أُخرجتَ منها قسرًا،[٢١] وقيل: إنَه تذكيرٌ بالرّجوعِ إلى الآخرةِ حثًّا على الثّباتِ تو افقًا مع خو اتِم السّورةِ على ما تضمّنه من رفعِ شأنِه ﷺ، والتّأكيدُ في كلا التّأويلينِ لإفادة تحقّق الوعدِ، والمعادُ اسمٌ لموضِع العودِ وهو مجازٌ بالنّسبةِ للحياةِ الآخرة لأنّا لم نكن فيها؛ وقد شهرت باسم دارِ المعادِ، وتنكيرُه"معاد" صيغ للتّفخيمِ أي هو ردٌّ خاصٌّ بك كاختصاصِك بالقرآن.

وكان كفّارُ مكّةَ يتّهمونَ الرّسُول ﷺ بالضّلالِ؛ فلقّنه الله بأن يُجيبَهم مناسبةً للانتهاء إلى دارِ المعادِ التي تُكشفُ فيها الحقائق: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ اعلموا أنَّ الله عالمٌ بمن جاءَ بالحقّ من الله؛ يشيرُ إلى نفسِه ﷺ، وعبّرهنا بالمجيء تلويحًا بالقرآنِ الجديدِ ليُقابلهُ بمنهجِ الضّلالِ القديمِ لتصحَّ المقارنة ويتبيّنَ الفرق ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ويعلمُ من كانَ في الضّياعِ الواضح؛ يُشيرُ بهذا إلى المشركين، وتضمّن هذا حثًّا على موادعتِهم وتركِ جدالهم؛ علاوة على تهديدٍ وتخويفٍ يلحقُهم.

---

[٢١] والنّبيء ﷺ كلنته توقّعات بأنّ قومه سيُخرجونه؛ كما سمع من ورقة بن نوفل يا ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك، وفي التّيسير: "أوحى الله عزّ وجلّ إليه وهو فيها –أي مكّة– أن ستُهاجر منها وترجعُ بالفتحِ إليها"، وقيل: نزلت الآية وهو في طريقِ الهجرةِ إلى المدينةِ من باب تبشيرِه وتسليّته، ينظر: محمّد بن يُوسف أطفيّش، تيسير التّفسير، ج١١، ص٣٥.

وممّا ثبّتَ الله به رسُوله ﷺ أن حثّه على النّظرِ في مرحلة ما قبل تلقّيه للرّسالةِ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ ولم تكن أيّها الرّسُول تطمعُ أن يُعطى إليك القرآن وقد جاءك بلا طلبٍ منكَ، ففي هذا دليلٌ على نبوّتِك الحقّة وأنَّ الله مؤيّدُك، والإلقاءُ مستعارٌ للإعطاءِ، وعبّر بالكتابِ ليتذكّرَ ﷺ بالخيالِ الكاملِ بدايةَ تلقّيهِ للوحيِ وهو أمّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتُب ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ إلاَّ أنَّ الله بمحضِ إرادتِه وفضلِه خصّكَ بإنزالِ القرآنِ؛ والاستثناءُ منقطعٌ، والتقدير: لكن رحمة...، لأنّه ﷺ لم يخطر بباله أنّه سيُبعث، واختار لفظَ الرّبوبيّةِ هنا تقويةً للإيناس والتّأييد، وتفرّعَ على ما سبقَ ما يأتي: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ فنوصيكَ بألاّ تكونَ معينًا للكافرينَ بعدَ أن تبيّن مكانُك الرّفيع عندنا، وأظهرَ صفةَ الكفرِ تعليلاً لموجبِ تركِ معاونتهم، ووجهُ النّهيِ التّأكيديّ هذا ألاّ يتأخّر في خدمةِ رسالتِه يريدُ ملاينة الكفّارِ ومطاوعتهم فيما يدعون إليهِ ولو لقصدٍ حسنٍ في جلبِهم، وقد صرّحَ بفحوى ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ ونُحذّرُك أيّها الرّسُول ﷺ من أن يُبعدُوك عن شيءٍ من تعاليمنا القرآنيّةِ بعدَ أن نزلت إليكَ وقامتِ الحجّة، واختارَ التّعبيرَ بآياتِ الله ليكونَ صدى وقعها في القلبِ أقوى ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ واجتهد في دعوةِ النّاس إلى الله، ونحوُ هذا الأمرِ محمولٌ على الأمرِ بالمداومةِ لأنَّ الرّسُول ﷺ لم يفتُر عن الدّعوةِ، وعموم الآياتِ ترسيخٌ لواجبِ الدّعوةِ؛ وألّا تكونَ إلاَّ إلى الله وكتابِه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا ترضينَّ بطريقِ المشركينَ بأيّ وجهٍ من وجوهِ المجاملةِ، ونحو هذا التّحذيرِ وإن توجّهَ إلى الرّسُول المعصومِ فقد تعيّنَ لأمّتِه من بابِ أولى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ و إيّاكَ أن تعبُد مع الله معبُودًا غيره، وهذا تأكيدٌ للنّهيِ عنِ الكونِ من المشركينَ بتغييرِ الأسلوبِ، والدّعاءُ مجازٌ عنِ العبادةِ لأنّهُ من أقوى مظاهرِها، والأسلوب القويّ لهذه الوصايا قد ناسبَ نهاية الفترةِ المكّيّةِ حيثُ تأتّى للرّسُول ﷺ أن ينفكَّ عن قومه المكابرين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنّه لا معبُود بحقٍّ سواهُ، وفي هذا تعليلٌ للنّهيِ عنِ الإشراكِ، وقد تضمّنَ تهييجًا لقلبهِ ﷺ ليبغض طريقهم ولا يتّبعهم؛ وتأييسا للمشركين الذي ما فتئوا يفاوضونه ﷺ في دعوته ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كلُّ مخلوقٍ سوى الله سيفنى ويبقى الله وحده حيًّا؛ والمرادُ: فكيف بك ترضى بعبادةِ غيرِه! والشّيءُ في الآيةِ بمعنى الذّات وهو ما سوى الله، والهلاكُ أريدَ به الموتُ، والوجهُ مجازٌ عن ذاته تعالى وليس من بابِ إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ لأنَّ الله تعالى منزّهٌ عن الجسمية وعن مشابهة الخلق ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

تذييلٌ ختاميٌّ له نظيرٌ سبقَ في السّورةِ في نفسِ الصّددِ، يُبيّنُ أنَّ الحُكم المطلق لله وحدهُ وإليهِ لا إلى غيرِه مرجعُ كلِّ العبادِ للحسابِ.

تمَّ بحمدِ الله تفسيرُ سورةِ القصصِ وتليها سورةُ العنكبوت

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية على الراجح؛ وقيل: بها آيات مدنية، وعدد آياتها تسع وستون آية، وسميت بسورة العنكبوت لأن الله ﷻ شبه عبادة المشركين لغيره فيها ببيت العنكبوت في الضعف والوهن.

موضوع السورة اهتمام بما اهتم به غيرها من السور المكية؛ تثبيت أصول العقيدة؛ من وحدانية الله ﷻ، ورسالة الرسل، والبعث ثم الجزاء، و افتتحت بتثبيت إيمان المسلمين في قلوبهم حين فتنهم المشركون، ثم أمرِ الله للمؤمنين بمجافاة المشركين والصبر على أذاهم، ونهيه إياهم عن مجادلة أهل الكتاب بغير التي هي أحسن، ووعده إياهم بنصرته لهم وبإهلاك عدوهم. ثم تلا ذلك أمرُ الله الرسول ﷺ بالثبات في دعوته تأسيا بمن قبله من الرسل مع استعراض بعض من أخبارهم وما تحويه من عبر. ثم عرجت السورة إلى إثبات أن القرآن منزل من عند الله، وإلى تذكير المشركين بنعم الله واستحقاقه العبادة دون سواه، ولاسيما وهم يعترفون به خالقا للسموات والأرض، ثم إلى إثبات البعث والجزاء، و إنذار المشركين بالعذاب الذي تهكموا به أن يأتيهم فجأة. ثم ختمت بوعد الذين جاهدوا أنفسهم بهدايتهم السبيل القويم.

تشابهت هذه السورة بسابقتها "سورة القصص" في تناولهما أمثلة للصراع بين الحق والباطل وبين الضعف والقهر، وبين أثري الصمود على الإيمان والانسلاخ منه؛ ففي سورة القصص وردت قصة جبروت قارون وفرعون ونجاة موسى وقومه من فتنتهما، أما هذه السورة فتناولت فتنة المشركين للمسلمين بمكة واضطهادهم بنحو أقل مما لقي قوم موسى؛ تسلية للمسلمين وحضا لهم على الصبر من أجل الدين، كما أن في كليهما حديثا عن الهجرة من أجل الدين ووعداً بالعاقبة الحسنة للمتقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مناط تكليف الناس واختبارهم وحقيقة جزائهم في الآخرة

﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ(٤) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٧)﴾.

﴿الم﴾ الحروف المقطعة تنبيه للسامع إلى إعجاز القرآن و أنه من عند الله ﷻ و أنه مركب مما رُكب به كلامهم، ومع ذلك لا يستطيعون الإتيان بمثله ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكاري على وقوع ما حسب الناس؛ أظن المؤمنون أن يتركهم الله بعد قولهم: آمنا، دون أن يمتحنهم ويبتليهم بالفرائض وبالصبر على المصائب في الأموال والأبدان وأذى المشركين؟ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ولقد امتحنا واختبرنا من سبقهم من الأنبياء وتابعيهم بأنواع من التكاليف والبلايا والمصائب؛ وهذه سنة الله فيمن سبقكم فلا يجدر بكم أن تتوقعوا غير ذلك ابتداء ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ الله ﷻ يعلم سلفا ما الذي يكون؛ و إنما لمراد: ليعلمن علما ظاهرا للخلق –بذلك الابتلاء- الذين صدقوا في قولهم: آمنا؛ بإتيانهم الفرائض وصبرهم على الشدائد من المتصفين بالكذب الذين ادعوا الإيمان ولم يصبروا عليه، ليميّزكل فريق عن الفريق الآخر ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أعقب الإنكار على المسلمين ظنهم بأن يأمنوا من الفتنة بزجر المشركين والعصاة عما يرتكبون من المعاصي؛ بل أظن المشركون الذين ينكلون بالمسلمين، والمسلمون الذين يعملون المعاصي والسيئات أن يعجزونا فيفوتوا من عقابنا إياهم؟ ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ بئس الحكم ما حكموا؛ إنه حكم سيئ مغلوط، والحكم في هذه الآية بمعنى الظن والاعتقاد؛أي: ساء ما يظنون أو يعتقدون ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ لما بين الله ﷻ بأنه لا يهمل العاصي، بين أن من يظن الخيرويطمع في ثواب الله، وعمل صالحا؛ فإن الله سيثيبه أيضا في الحياة الآخرة ولا يهمله وإنها أجل آتٍ لا محالة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والله هو السميع بأقوال عباده

وبأفعالهم والعليم بعقائدهم وأحوالهم الظاهرة والباطنة وهذا العلم منه يقتضي أن يجازي كلا منهم جزاء و افيا على عمله ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن بالغ في جهاد نفسه وحملها على طاعة الله ومخالفة الهوى، وجاهد في إعلاء كلمة الله فإنما يعود جهاده منفعة له وثو ابا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ إنّ الله ﷻ مستغنٍ عن أعمال خلقه جميعا من الجن والإنس وغيرهم لا تنفعه ولا تضره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِم﴾ بيّن الله ثو ابه للمجاهدين أنفسَهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ أنه ﷻ ليمحونّ عنهم الشرك بالإيمان والتوحيد، وليغفرنّ لهم الذنوب بالتوبة واجتناب المعاصي ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ واللهُ في غناه ليثيبنّهم مقابل كل ما عملوا جزاء كجزاء أحسن ما جاؤوا به من أعمال وطاعات، ويضاعف لهم الثواب من عنده؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠].

واجب المؤمن نحو والديه إذا أمراه بالشرك، ومظاهر فتنة الكفار والمنافقين له

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢)وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾.

بعد أن ذكر الله ﷻ حسن الجزاء على طاعته والإتيان بتكاليفه، بين أن ذلك واجب؛ ولو كان مخالفة للوالدين اللذين أكد على برهما ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وأمرنا جنس الإنسان الذكر والأنثى أمرا مؤكدا، بالإحسان إلى الوالدين إحسانا كاملا قولا وفعلا، وطاعتهما فيما ليس معصية لله ﷻ، وذلك لقاء إحسانهما إليه صغيرا ولأنهما سبب وجوده ﴿وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ وإن بذلا أقصى جهدهما في أمرك -أيها الإنسان- بأن تشرك في عبادتي

ما ليس لك به علم مستند إلى الدليل والعقل على استحقاقه العبادة، فلا تمتثل أمرهما؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إليّ مصيركم جميعا -أيها الناس- بإحيائكم بعد موتكم؛ لأخبركم عن أعمالكم وأجازيكم على البروالطاعة الجزاء الحسن، وعلى العقوق والعصيان الجزاء السيئ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ والذين آمنوا و أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح لنجعلنّهم في الجنة، مع الذين كمل صلاحهم وهي مرتبة عليا؛ وفيها قال الله ﷻ على لسان سليمان عليه السلام وهو يدعوه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النَّمْل: ١٩]، وهذا مما ينبّئ الله به الناس يوم يرجعون إليه؛ وفي الآية أيضا إشارة إلى أن الإحسان إلى الوالدين ولو كانا مشركين، لا يعنى صحبتهما في المصير الأبدي، بل يتحدد بالعمل وليس ثمة اتباع للقرابة في المصير الأخروي حتى لو كانت بين الولد ووالديه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ لما ذكر الله ﷻ حال المؤمنين المخلصين في إيمانهم ذكر حال المنافقين المذبذبين بين الإيمان والشرك؛ وثمة في الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله وحده وبرسوله؛ لكن إيمانهم لم يكن راسخا؛ إذ إنهم يظهرون الإيمان للمؤمنين ويبطنون الشرك ﴿فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ﴾ فإذا لحقهم أذى المشركين من أجل إيمانهم جعلوه -بحماقتهم- في منزلة عذاب الله الذي يحمل المؤمنين على الإيمان وقاية لأنفسهم منه، فأطاعوا المشركين وارتدوا من الإيمان إلى الشرك اتقاء شرهم ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وجعلوا ادعاءهم الإيمان عُدة لهم حين ينتصر المسلمون؛ فإذا فتح الله ﷻ عليهم بالغلبة والانتصار على المشركين والظفر بالغنائم قالوا لك –أيها الرسول ﷺ- ولمن معك من المؤمنين: إنا كنا لكم ردءا على الأعداء في الدين وكنا نقاتلهم معكم؛ كما قال الله عنهم في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾ استفهام تقريري من الله ﷻ بمعنى؛ إن الله أعلم من أي أحد بتفاصيل ما في صدور الخلق جميعهم، وبما يضمر أولئك المنافقون في قلوبهم من نفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾ على أن الله ﷻ يعلم علم غيب ما في صدور كل العالمين، ليُظهرنّ –من علمه- للناس فريقين من العالمين هما المؤمنون والمنافقون؛ ولقد اهتم بهما في هذا المقام لأن العلم بهما يقتضي الجزاء المناسب لكل منهما، وفي هذا إظهار لرفعة مكانة المؤمنين وخسة مكانة المنافقين.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ لما تبيّنت الأحوال الثلاثة من الناس؛ مؤمنين وكفارا ومنافقين، ولم يفلح الكفار في فتنة المؤمنين عن دينهم بالأذى والتعذيب، حاولوا فتنتهم باللين، فقالوا لهم -جهلا وغرورا-: اتركوا دينكم واكفروا به كما كفرنا، وإن كان ثمة عقاب على ذلك فسنتحمل وزر خطاياكم بدلا منكم ﴿وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأبطل الله ﷻ دعواهم؛ إذ ليس لهم أن يختاروا جزاءهم عند الله، ولا أن يتحملوا خطايا غيرهم في أي ذنب مهما كان صغيرا؛ ولقد قرر الله ﷻ هذا في قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ [فاطر: ١٨] ﴿إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ إن هؤلاء الكفار كاذبون فيما ادعوه من وعدهم المؤمنين بحمل خطاياهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ وليتحمَّلُن هؤلاء الكفار عذابا ثقيلا عليهم على كفرهم، وعذابا ثقيلا على إضلالهم من أضلوا؛ دون أن يُنقص ذلك من عذابهم شيئا ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وليسألُنَّ سؤال تقريع وتوبيخ هؤلاء الكفار يوم القيامة على ما اختلقوا من أكاذيب على المسلمين، ففتنوا الضعاف منهم عن دينهم، وعلى ما حاولوا فتنتهم فلم يستجيبوا لهم.

قصة طول مدة دعوة نوح عليه السلام قومه إلى التوحيد، وهلاكهم بتكذيبه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥)﴾.

بعد أن ذكر الله ﷻ أقسام المكلفين وما يلاقيه المؤمنون من الكفار، وجزاء كل فريق منهم، ساق قصصا لمن سبق من أنبيائه تسلية للنبي ﷺ؛ أولها قصة نوح وهو أول الأنبياء؛ لما في أوائل التواريخ من وقع في النفوس، ثم إنه أطولهم عمرا في دعوته ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً﴾ افتتح الله الآية بواو القسم؛ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فمكث فيهم ألف سنة إلا

خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله ﷻ مخلصين فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته وآثروا عبادة الأصنام، وقد عبر عنها القرآن بـ"السنة" لأن السنة تعني اثني عشر شهرا في الشدة والمعاناة؛ كما قال ﷻ على لسان يوسف عليه السلام يشير على قومه ليتجاوزوا قحطا أصاب بلادهم:﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] ولبث فيهم خمسين عاما بعد الطوفان وليس فيهم إلا المؤمنون به، وعبر عنها القرآن بالعام لأنه يعني اثني عشر شهرا من الراحة والاطمئنان؛ كما قال يوسف عليه السلام لقومه يحدثهم وينبئهم بانتهاء زمن القحط: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ كانوا مستمرين في تكذيبهم، فأغرقهم الله بالطوفان وهم متلبسون بظلم أنفسهم، مصرون على الشرك بالله، وكان نوح عليه السلام صابرا معهم قرابة ألف سنة وما ضجر؛ فعليك أن تصبر أيضا يا محمد ﷺ مع قومك، وعليهم ألا يغتروا بإمهالنا إياهم مهما طالت المهلة . "الطوفان" كل ما يطوف على الشيء بكثرة وشدة؛ والمقصود هنا سيل أحاط بهم فأغرقهم ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ﴾ فجعلنا نوحا عليه السلام ومن معه من المؤمنين في متن السفينة التي أوحينا إليه بصنعها في مأمن من الطوفان؛ قال ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون:٢٧] ﴿وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾وجعلنا السفينة وحادثة إغراق الكفاروتنجية المؤمنين عبرة لكل الناس ممن يأتون بعد نوح من أقوام الأنبياء؛ بأن من سنة الله ﷻ إهلاك الظالمين بعد إمهالهم وتنجية المؤمنين.

قصة دعوة إبراهيم قومه بالأدلة إلى الإيمان بالوحدانية والرسالة والبعث

﴿وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾.

كما أنجى الله ﷻ نبيه نوحا عليه السلام من الماء فإنه أنجى نبيه إبراهيم عليه السلام من النار﴿وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ﴾ واذكر لقومك -يا محمدﷺ- نبيَّنا إبراهيم لما دعا قومه أن أخلصوا العبادة لله، واجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه بطاعته وعدم عصيانه ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فعلتم كان جلبا للخير لكم ودفعا للشر عنكم، إن كنتم ذوي بصيرة مدركين تميزون ما هو خير لكم مما هو شر لكم. ثم استدل إبراهيم عليه السلام على صحة ما دعا إليه قومه من التوحيد بدليلين؛ أولهما: ﴿إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ يا قوم لستم تعبدون من دون الله ﷻ إلا أصناما من حجر تنحتونها بأيديكم وتدّعون أنها آلهة، وهي في الحقيقة لا تنفعكم شيئا ولا تضر. ثانيهما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ إن هؤلاء الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا تملك أن ترزقكم شيئا أبدا مهما كان صغيرا أو كبيرا ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ فاطلبوا من الله ﷻ الرزق؛ هو وحده القادر على رزقكم، وأخلصوا له العبادة واشكروه على نعمه وعلى ما يرزقكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ واستعدوا للقائه؛ فإن إليه لا إلى غيره مرجعكم بعد انبعاثكم من موتكم يوم القيامة ليجازيكم على كل ما عملتم ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ انتقال من إخبار الرسول ﷺ قومه بقصة نوح و إبراهيم إلى تهديدهم؛ إن تكذبوا رسالتي ولا تصدقوا بها فلن يضرني ذلك شيء إنما يضركم أنتم، وقد سبق وأن أُرسل رسل إلى أقوامهم وكذبوهم فحل بهم ما بلغكم في أخبارهم من العذاب ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وليست مهمة الرسول ﷺ إلا تبليغ رسالة ربه و إقامة الأدلة والبراهين عليها، وأما الهداية فبيد الله ﷻ فاحرصوا بأنفسكم على سعادتكم بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استفهام توبيخ لمنكري البعث؛ ألم يبصروا بالتفكر والأدلة كيف أن الله ﷻ خلق الكون وخلقهم أنفسَهم من العدم، فيستدلوا بذلك على إمكان أن يبعثهم بعد موتهم مرة أخرى؟! وليس الله بعاجز عن ذلك ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن خلق الله مخلوقاته من إنس وغيرهم ثم إحياءهم بعد موتهم هين عليه، يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ يا محمدﷺ قل لمنكري البعث: سيروا في أرجاء الأرض لتنظروا كيف أن الله خلق الخلق على كثرتهم وتنوعهم واختلافهم، وخلق السموات والنجوم والكواكب، وخلق الأرض التي تعيشون فيها وليست بالنسبة

لكون الله إلا كحبة رمل في فلاة، وما الإنسان فيها إلا مخلوق صغير جدا لا يكاد يُرى، وانظروا آثار الأقوام الماضية وكيف كان الله قادرا على إهلاكهم مهما طغوا وتجبروا ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾كما أن الله ﷻ خلقهم أول مرة، فإنه سيجعل حياة أخرى بعد الموت، ويحييهم فيها مرة ثانية ليعيشوا تلك الحياة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن الله قادر على الخلق من العدم، والبعث بعد الموت لا يعجزه عن ذلك شيء أو يصعبه عليه ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ﴾ الغرض من البعث في الآخرة هو الجزاء إما ثوابا وإما عقابا؛ فالله المتصرف لا معقب لحكمه، يعذب بالنار من شاء؛ وهم العصاة والمشركون من الإنس والجن، ويرحم بالجنة من شاء؛ وهم الطائعون والمؤمنون منهم، ومشيئته ليست اعتباطا أو أمرا مبهما لكنها تسير وفق قوانين طاعته بامتثال أمره أومعصيته وبإتيان نهيه ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ خطاب للناس جميعهم؛ وإليه ترجعون فيحاسبكم ويحكم بينكم حكما عادلا لا جور فيه ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ وما أنتم بقادرين على أن تنفلتوا من نفاذ حكم الله فيكم ولا أن تجعلوا الله ﷻ عاجزا عن إدراككم، سواء أكنتم في الأرض أم في السماء ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم غير الله وليّ يمنع عنكم بلاء يأتيكم من الأرض أو السماء ويحفظكم عنه، ولا نصير لكم يدفع عنكم عذاب الله إذا حقّ عليكم وأراد تعذيبكم، فلا مطمع لكم في الاحتراس منه إن عصيتموه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ تأكيد على تيئيس الكفار والعصاة من رحمة الله يوم القيامة؛ بمعنى أن الذين كفروا بالقرآن وبلقاء الله ﷻ في البعث أولئك سييأسون من رحمة الله يوم القيامة حين يرون العذاب؛ وعبر على يأسهم بالماضي لتحقق وقوع البعث ونفاذ ما فيه من أحكام الحساب والجزاء ﴿وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ وأولئك لهم عذاب مؤلم موجع يوم القيامة.

موقف قوم إبراهيم عليه السلام من دعوته و إيمان لوط عليه السلام به و إنعام الله عليه

﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي

مُهاجِرٌإِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾.

﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ لما أقام إبراهيم عليه السلام لقومه الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﷻ وغلبهم بها على أمرهم، لجأ الملأ من قومه إلى تهديده مستخدمين قوتهم وسلطانهم؛ فقال بعضهم لبعض: لِنقتله أولِنبالغ في إحراقه بالنار﴿فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ فأشعلوا نارا وألقوه فيها ليستريحوا منه إن مات، أو يذعن لهم ويترك دعوته؛ فحفظه الله من إحراق النار إياه وجعلها له بردا وسلاما لا حرفيها على غير عادتها؛ قال ﷻ: ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ، وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنجائنا إبراهيم لدلالاتٍ وحُجَجًا على وجود الله ﷻ لقوم يصدّقون بوجوده ويعملون بشرعه ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ﴾ قال إبراهيم عليه السلام لقومه -لما نجاه الله ﷻ من النار- موبّخًا إياهم ومستقبحا صنيعهم: ما اتخذتم أصناما آلهة باطلة تعبدونها من دون الله إلاّ لتتحابوا على عبادتها ولتكون سبب اجتماعكم وتآلفكم في الحياة الدنيا؛ لكنها لا تعقل ولا تنفعكم ولا تضر ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ ثم في يوم القيامة وحين يَظهر عدم جدوى عبادتها؛ برؤيتكم مصيركم تنقلب المودة بينكم عداوة؛ كما قال ﷻ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وتكفرون جميعا بآلهتكم، ويتبرأ المتبوعون منكم من التابعين، ويلعن التابعون المتبوعين على أن غروهم بالضلال ووافقوهم عليه ﴿وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ ثم يكون مصيركم جميعا إلى النار ولن تجدوا ناصرا يمنعكم من دخولها؛ حتى آلهتكم التي كنتم تنصرونها وتتألبون على إبادة دعوة الحق بقتل نبي الله من أجلها لن تنصركم.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ لما قامت الحجة على قوم إبراهيم عليه السلام بنجاته من النار، آمن به من قومه نبي الله لوط عليه السلام ﴿وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ وقال إبراهيم عليه السلام: إني تارك أرض قومي ومهاجر إلى حيث يأمرني ربي، من البلاد التي أتمكن فيها من نشر التوحيد ولا أُمنع؛ قيل إنه هاجر من العراق إلى فلسطين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إن الله هو العزيز الذي لا يغالَب، ولا يَذل من اعتمد عليه، وهو الحكيم لا يأمر إلا بما فيه الصلاح ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لما فارق إبراهيمُ قومه وأرض الشرك رزقناه

إسحاق ولدا ومنه رزقناه يعقوب حفيدا، وكلاهما نبي؛ قال تعالى:﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]. ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾ وجعلنا كل الأنبياء الذين أرسلوا من بعده من سلالته، وعليهم أنزلت الكتب السماوية ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا﴾ وأعطيناه في الدنيا ثواب بلائه في الله ﷻ بإنجائه من النار، ورزقه بالذرية الصالحة، والثناء الحسن من بعده في كل الرسالات السماوية ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وجعلناه في الآخرة من كاملي الصلاح؛ وبهذا جمعنا له بين سعادتي الدنيا والآخرة.

قصة دعوة لوط عليه السلام قومه، وأخذ الله لهم على توغلهم في الفحش

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾.

لما ذكر الله قصتي نوح و إبراهيم ذكر قصص أنبياء آخرين؛ للعظة ولبيان عاقبة المكذبين رسلهم، وتأكيدا لما ورد في بداية السورة من أن ابتلاء الله عباده سنة الكون عبر العصور﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾ وجه خطابا للنبيﷺ؛ واذكر نبي الله لوطا عليه السلام إذ قال لقومه منكرا عليهم، ومقبّحا فعلهم: إنكم تقترفون فعلا غاية في القبح شرعا وفطرةً ﴿ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ لم يسبقكم إلى فعلتكم المتناهية في القبح أحد من خلق الله ﷻ ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ﴾ سؤال استنكار؛ أتأتون الرجال في الأدبار بشهوة كإتيانكم النساء في الفروج؟ ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ وتترصدون للمارة في طرقاتهم فتسلبون أموالهم وتكرهونهم على الفاحشة، وترتكبون في مجالسكم أنواعا من الأعمال المنكرة شرعا وعقلا وتجهرون بها؟! ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ﴾ فلم يكن

جواب قوم لوط له لما حذرهم ودعاهم إلى ترك ما هم عليه إلا استعجال العذاب ﴿إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قالوا مستهزئين مستعجلين لوطا عليه السلام بالعذاب: جئنا ما تهددنا به من عذاب الله إن كنت صادقا في دعوى النبوة، منجزا لما وعدتنا به ﴿قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ لما أيس لوط عليه السلام من قومه، ورأى بأن لا خير يُرجى فيهم عاجلا أو آجلا دعا الله ﷻ بأن انصرني عليهم، فإن عدمهم خير من وجودهم، وإنهم قوم مفسدون أنفسهم بابتداع الفاحشة، ومفسدون غيرهم بسنها فيمن بعدهم فاستجاب الله دعاءه.

﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى﴾ ولما جاءت ملائكة الله إبراهيمَ عليه السلام ببشارة ولده إسحاق ومن ورائه يعقوب ﴿قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾ قالت له إنا قادمون لإهلاك قرية قوم لوط؛ لأن أهلها ظالمون أنفسهم بالإمعان في الفحش ومعصية الله ﷻ ﴿قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً﴾ قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: إن لوطا في القرية التي أرسلتم لإهلاكها وهو ليس بظالم وهو نبي، ﴿قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها﴾ قالت الملائكة لإبراهيم مطمئنة إياه: نحن أعلم منك بوجود لوط ومن معه من المؤمنين في القرية ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ لنجعلنّه وأهله معه في منجى ومأمن من العذاب؛ إلا امرأته سبق في علم الله أنها من الباقين في القرية الهالكين بعذاب الله ﴿وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ ولما ذهبت الملائكة رسل الله ﷻ من عند إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام ورآهم؛ ظنهم ضيوفا من البشر فساءه ذلك وحزن؛ لأنهم كانوا حسانا فخاف عليهم من قومه أن يفحشوا بهم ﴿وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ قالت الملائكة الرسل للوط عليه السلام: لا تخف علينا من أن يصل إلينا قومك الفاسقون بمكروه، ولا تحزن على ما سنلحقه بهم من الهلاك بأمر الله، فهم لا يستحقون الحزن عليهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ ثم إننا سننجيك وأهلك معك من العذاب، إلا امرأتك ستكون هالكة مع قومك لأنها كانت تظاهرهم على الكفر والفساد ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ إنا سننزل على أهل قريتك -يا لوط- عذابا مؤلما من السماء؛ تضطرب به نفوسهم ويهلكهم ﴿بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾ جزاء لهم على أنهم كانوا ولا يزالون مستمرين في فسوقهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ولقد تركنا بعد إهلاكهم ديارهم الخربة وأخبارهم السيئة علامة واضحة لقوم يُعملون عقولهم ويتعظون ويعتبرون.

﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَوَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾.

بعد أن ذكر الله قصتي نوح و إبراهيم ومعه لوط أردفها بقصص أنبياء آخرين للاعتبار؛ عرضها موجزة لأن أقوامهم كانوا مشهورين بأسمائهم على خلاف من سبق ذكرهم من الأقوام ينسبون إلى أنبيائهم ﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ وأرسلنا إلى قبيلة مدين نبي الله شعيبا عليه السلام ﴿فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له، وأمرهم بخشيته وبترقب يوم القيامة والطمع في حسن ثواب الله فيه على طاعته و إفراده بالعبادة ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ونهاهم عن البغي على الناس في الأرض بإنقاص المكيال والميزان أو قطع الطريق أو أي نوع من الإفساد فيها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فكذب أهل مدين شعيبا ولم يؤمنوا بالله ويخلصوا له العبادة؛ فكان عقابهم أن أهلكهم ﷻ بزلزلة شديدة دمرت ديارهم وأماتتهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ فصاروا في ديارهم -وهم ميتون- باركين على رُكَبهم ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾ أُكملت هذه القصص بقصتي عاد قوم هود وثمود قوم صالح، والعهد بالقرآن اقتران هذه القصص في نسقه القصصي؛ وأهلكنا عادا قوم هود الذين كانوا يسكنون قرية الأحقاف، وثمود قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحِجْر بين الحجاز والشام؛ ولقد علمتم -معشر قريش- من آثارهم ومساكنهم الخربة التي تمرون عليها في رحلاتكم، ورأيتم علامات عذابهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ ووسوس لهم الشيطان فحسّن لهم الأعمال القبيحة؛ من الكفربالله وعبادة غيره، وارتكاب المعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فمنعهم سلوكَ طريق الحق ومنعهم السعادة

الأخروية، وكانوا ذوي عقول تمكنهم من حسن النظر بالأمور فلم ينتفعوا بها؛ فلا عذر لهم على اتباع وسوسة الشيطان.

﴿وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ﴾ وأهلكنا أيضا "قارون" ذا الكنوز الوفيرة، و"فرعون" صاحب الملك، ووزيره "هامان"، بعد أن جاءهم نبي الله موسى عليه السلام بالحجج الواضحات الدالات على صدق رسالته وبالآيات البينات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ﴾ فتعالوا في الأرض عن الحق، واستكبروا عن عبادة الله ﷻ وطاعة رسوله موسى عليه السلام، ولم يكونوا فائتين من حكمنا أو مفلتين من عذابنا بل كنا قادرين عليهم ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ﴾ فكلاً ممن ذكرنا من الذين كذّبوا أنبياءهم أهلكناهم بعذاب يناسبهم على ما اقترفوا من ذنب ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً﴾ فمنهم من أهلكناه بريح عاتية تحمل الحصباء فتلقيها عليهم، ويُرفعون إلى عنان السماء ثم يقعون على الأرض صرعى؛ وهذا ما فُعل بعاد وبقوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ ومنهم من أرسلنا عليهم صيحة أخمدت أصواتهم وحركاتهم وأزهقت أرواحهم؛ كما فعلنا بثمود قوم صالح عليه السلام لما كذبوه وبأصحاب مدين إذ كذبوا شعيبا عليه السلام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ﴾ ومنهم من جعلناه يغور في الأرض مع أملاكه كما فعلنا بقارون لما خرج مختالا في زينته ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا﴾ ومنهم من كان عذابه الإغراق كما حدث لقوم نوح لما كذبوه أرسلنا عليهم الطوفان فأغرقهم جميعا، ولم ينج إلا نوح عليه السلام ومن آمن معه، وكما أغرقنا فرعون وهامان في البحر لما لحقا نبي الله موسى عليه السلام بغية إهلاكه ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وكل صنف من العذاب كان جزاء وفاقا لمن أُهلك به؛ ولم يكن الله ليأخذ أحدهم بذنبِ غيره ظلما أو بذنبٍ لا يستحق به الاستئصال، لكنهم ظلموا أنفسهم بالتنعم في نعم الله ﷻ وعبادة غيره وظلم عباده والإفساد في أرضه.

تشبيه عبادة الأصنام ببيت العنكبوت في الوهن

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣)﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ حال المشركين الذين عبدوا من دون الله أوثانا ثم لم تنفعهم، وأهلكوا بعبادتها؛ كحال العنكبوت تبني بيتا في غاية الضعف والحقارة تعتصم به ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت؛ وضعفها يتمثل في انهيار العلاقات الاجتماعية لما فيها من عدوان وتخريب؛ فالأنثى عندما تنجب أولادا تقتل زوجها وتلقيه خارج البيت، وصغارها عندما يكبرون يقتل بعضهم بعضا، كما يتمثل في هشاشة بنائه، إذا يمكن إزالته بأدنى حركة، وكذلك الأعمال التي يقدمها المشركون للأصنام ستكون هباء منثورا. أما خيوط بيت العنكبوت فقد اكتشف العلم الحديث بأن الخيوط التي تنسجه بها متينة جدا وليست ضعيفة، وفي هذه الآية تشبيه بديع، يجعل كل عاقل يتصور ضعف الآلهة التي تعبد من دون الله، وفيها أيضا إعجاز علمي، لأن الله قال: اتخذت، بتاء التأنيث، مما يدل على أن الأنثى هي من يبني البيت، وهذا من ثبت في العلم الحديث ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولو علم هؤلاء المشركون أن هذا مَثَلهم فيما يعبدون لَعبدوا الله وما عبدوا الأصنام؛ لكنهم لغاية جهلهم لا يعلمون شيئا من عو اقب الأمور﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن الله ﷻ أعلم منكم بحقيقة ما تدعون من دونه، أما أنتم إن سُئلتم عن ذلك فإنكم سترتبكون ولن تقدروا على بيان الحقيقة وشرحها، وهو يعلم أنما تعبدون لا قيمته له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو قادر على الانتقام ممن يشرك به غيره في عبادته، وهو حكيم في أفعاله يعلم ما يفعل عباده، وسيجزيهم على ما عملوا الجزاء العدل ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾ لما بين الله ﷻ للمشركين عدم جدوى عبادتهم الأصنام، وجهلَهم بحقيقة عبادتها نعى عليهم بأنهم ليسوا أهلا لفهم هذه الدلائل؛ هذا المثل وغيره من الأمثال في القرآن الكريم نمثل بها للناس تقريبا لأفهامهم ولينتفعوا ويتعلموا منها ﴿وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ﴾ وما يدرك هذه الأمثال إلا العالمون بالله الذين يفهمون مراده، ولا يفهمها سفهاء الأحلام.

انتفاع المؤمنين بآية خلق السموات والأرض، ونهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لما أبان الله ﷻ بطلان إشراك غيره به في العبادة، لفت الأنظار إلى دلائل وجوب إفراده بها؛ فقد أوجد الله السموات والأرض دليلا على قدرته وفضله على الناس، مراعيا في ذلك الحكمة والمنفعة لخلقه في الدنيا، وهو محق غير قاصد الباطل ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذا الخلق المحكم والصنع البديع دلائل للمؤمنين الذين يستدلون بها على وجود خالق متفرد بإيجادها، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم هم من ينتفعون بهذه الدلائل دون غيرهم ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ﴾ لما بين الله بطلان عقائد المشركين وصحة عقائد المؤمنين أقبل على رسوله بالخطاب، تثبيتا له على نشر دعوته وإعلان كلمة الله ﷻ؛ قائلا له: اقرأ وليقرأ غيرك من المؤمنين هذا القرآن الذي أوحاه الله إليك وتقربوا إليه بتلاوته ﴿وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وأدّوا الصلاة فرضا ونفلا تامة الأركان والشروط مع استصحاب الخشوع لله والخضوع له، فإنها تورث صلاح النفس باستحضار رقابة الله ﷻ في كل الأمور، وبذلك يمتنع مقيمها من ارتكاب الفواحش والمنكرات، ويزيد بها قربا من الله ﷻ. "الفحشاء": اسم للفاحشة؛ وهي تجاوز الحد المقبول، وهنا هي: تجاوز الحد المأذون به شرعا من القول والفعل. والمنكر: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وإن ذكركم الله ﷻ في الصلاة وغيرها بامتثال أمره واجتناب نهيه أعظم من أي شيء تأتون به لأنه من أعظم مقاصد الصلاة، والعبد إذا ذكر الله ذكره الله مكافأة له؛ وهو وعد منه ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وذكر الله عبده أعظم من ذكر العبد ربه، وهو أعظم من كل ما ينزل بالعبد، إذ كل شيء يهون أمام ذكر الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾ والله يعلم كل أعمالكم من خير أو شر وسيجازيكم وفقها أعدل الجزاء.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النو افل.
ج	قو افل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أوكفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب".

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ..... وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله و إفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.